نزار قباني

من أوراقي المجهولة

«سيرة ذاتية ثانية»

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢٩٥٥

رقم الإيداع: ١٧٠٨٧ / ٢٠١١

من أوراقي المجهولة
«سيرة ذاتية ثانية»

مقدمة

ولد ليكتبَ الشعر.
لم يترك بيتاً لم يدخُلْهُ..
ولم يتركْ حديقةً لم يجلسْ تحتَ أشجارها..
ولم يتركْ امرأةً لم يزرعْ في شَعرها قصيدة..
ولم يترك طفلاً لم يلعبْ معه..
ولم يترك عاشقاً إلا احتضنه..
ولا عاشقة إلا أهداها ديواناً من شعرِه..
وعلمها كيف تكتشفُ أنوثتها..
هكذا رأى نزار قباني نفسَه وهكذا كان هو والشعر وِحْدة حال.
إنه شاعرُ كل الفصولْ..
فمعَ قمرِ الصيف يأتي..
ومع الياسمين الدمشقي يأتي..
ومع التماعات البرقِ.. يأتي..
ومع بكاءِ الوطنِ يبكي.. ومع نزيفه ينزف..
وفي الأعراسِ الشعبية يجلسُ مع الناس على الأرض، ويشربُ الشايَ معهم، ويتقاسمُ معهم أرغفة الخبز.. وأرغفةَ الحرية..

١

تساءلتُ دوماً ما هي الموهبة، فكل منا يتساءل أحياناً عن ماهية الحياة أو الموت وما هو علم الغيب؟ كل الأسئلة الغامضة في عالم المجهول.. لكن السؤال عن معنى الموهبة لا يشغل أحداً كما يشغل من يعيش مع فنانٍ مبدع ويأكلُ ويشرب معه. لابد أن الإلهام يدقّ على باب منزلٍ ما ويختار: «كن يا نزار شاعراً» وتقول القوة الملهمة الخلاقة، فيكون. أعرفُ هذا لكوني ابنةَ نزار قباني وقد رأيته يعيشُ للشعرِ وحده وقد مات أبي عندما توقف عن الكتابة.

٢

كان أبي يعيش بالكتابةِ ومن أجل الكتابة وفي الكتابة.

كل شيءٍ آخر كان يفعله ما كان غيرَ تفاصيل. تفاصيل محببة إلى قلبِه ولكنها تبقى تفاصيل. فهو مع أنه يعشق منزله وعائلتَه وأناقة ملابسه ويهتم جدّاً بمعجبيه، لكن دون أن يعلم، أو لعله كان يعلم، أن محور علاقته بهذه الموجودات هو دائماً الكلمات. كان يعجب بابنتي مايا لأنها تعرف علم الحساب ويسميها العبقرية، فأضحكُ وأقول له: لكنك أنت أيضاً عبقري لأنك تكتب الشعر، فينظر إليّ باستغراب ويقول: لكن الشعر سهل!.

كان يتردد في كل شيء ويقلب أبسط أمور الحياة ولكنه عندما يكتب الشعر يكون تحت سطوة اليقين، تحت سطوة أصعب ما في الدنيا.. إنه يعرف تماماً ما هو الشعر والمعرفة التامة مستحيلة لكنه يعرف معرفة المتخصص وكأنه خُلق ليكون الشعر خاصته وحصته بالحياة.

٣

وتتراءى لي الآن نظرته التائهة عندما كان الشعر يأتيه في خضم الحياة العادية:

في المطبخ!

في الطريق!

في السوق!

أمام التلفزيون!

فإذا به يتغير، وبعد أن يكون معنا نعرف، نحن أولاده، أنه لم يعد لنا، نعرف أن قوة علوية قد مسته وجذبته إليها وأن الشعر سكنه لا محالة.

٤

أبي دائماً ينتبه لأصغر اللفتات والسكنات، وهو شديد الحنان والحساسية، لذلك ما كان ليتجاهل وجودنا. إلا إذا جاءه الشعر فإذا بأحواله تتغير. وإذا بأختي زينب تقف أمامه أحياناً لمدة ساعة كاملة فلا يراها، أو إذا به بعد أن كان مشغولاً معي في حوار يسأل ويجيب باهتمام تتلقفه «الصفنة» فجأة: تمر على عينيه غمامة وينطبق فمه على كلام. وكان يسمى حالته هذه «الصفنة» وهي تعني بالعامية الدمشقية السهو لفترة ما والغرق فيما يشبه حلم اليقظة، وبعد الصفنة كان يجلس ويبدأ الكتابة دون تردد أو توقف، بدون وجل وبثقة لا يمنحها سوى الله.

وكان هو يردد دائماً الشعر صلاتي وشكري لله.

عندما بدأ أبي كتابة السيرة الذاتية الثانية كان في عز العطاء والعافية وقد زادت حدة ذكائه مع ازدياد عمره وتراكم خبرته بالحياة وآلامها ومتعها، غير أنه لما هاجمه المرض أتعب جسده وقلبه. وإذا كان المرض لا يستطيع أن يوقف قوة التخييل والإحساس عند الفنان فإنه يستطيع أن يؤثر عليه كبنية فيزيولوجية فيمنعه من الكتابة.

لم تُجافه الكتابة من قبل إلا مرة واحدة ولمدة ستة أشهر تعذب خلالها كثيراً (خلال حرب لبنان) واستعاد بعدها عافيته الشعرية. لكنه هذه المرة استسلم لقلبه المريض فصرت أحرص على أن أضع أمامه الأوراق والدفاتر الملونة والأقلام وأرجو منه الكتابة. لم أكن أسأله كتابة الشعر، لأننا لم نتدخل إطلاقاً في حياتنا معه في كتاباته ولأن الشعر أصلاً لا يأتي عند الطلب، بل كنت أسأله أن يكتب ذكرياته مع الشعر، وكان يلبي أحياناً ويتمنع أحياناً، وكنت ألح عليه في أمور أخرى كتناول الطعام والدواء، وطبعاً أحرضه باستمرار على الكتابة حتى أسماني «هدوبة النقناقة» وكنت فخورة بلقبي هذا وكان سبب «نقي» وجيهاً وهو أنني كنت أو من بأنه إذا كتب أبي فسيعيش.

هل كانت تلك فكرة خرافية انتابتني: أن أبي سيعيش ويعيش طالما كان يكتب ويكتب ويكتب؟.

هدباء نزار قباني

لندن ١/ ٣/ ٢٠٠٠

مقدمة قصتي مع الشعر
(سيرة ذاتية أولى)

أريد أن أكتب قصتي مع الشعر قبل أن يكتبها أحدٌ غيري.

أريد أن أرسم وجهي بيدي، إذ لا أحدَ يستطيع أن يرسم وجهي أحسن مني.

أريد أن أكشف الستائر عن نفسي بنفسي، قبل أن يقصَّني النقاد ويفصّلوني على هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد.

ثلاثة أرباع الشعراء من فيرجيل، إلى شكبير، إلى دانته، إلى المتنبي، من اختراع النقاد، أو من شغلهم وتطريزهم على الأقل.

ومن سوء حظ الشعراء القدامى، أنهم لم يكونوا يمتلكون دفاتر مذكرات.

أما أنا فهذا هو دفتر مذكراتي، سجلتُ فيه كل تفاصيل رحلتي في غابات الشعر.

ولأني لا أريد أن أدخل غرفة العمليات، وأُسلِّم جسدي إلى مباضع الناقدين، قررت أن أظهر على المسرح بشكلي الطبيعي ووجهي الطبيعي، وأتوجه إلى الجمهور مباشرة بغير وسطاء، وإعلانات حائط، وشباك تذاكر..

قررت أن أستغني عن خدمات التراجمة، والأدلة وأتجول في مدينة الشعر وحدي.. لأنني ما دمتُ أملك صوتاً، فلا حاجة بي لكل أشرطة التسجيل.

لا أحد يستطيع أن يكون فمي أكثرَ من فمي.. فالشعر نبات داخلي من نوع النباتات المتسلقة التي تتكاثف وتتوالد في العتمة. إنه

غابة من القصب لا يعرف خريطتها إلا من راقبها وهي تكبر في داخله شجرة.. شجرة..

عن هذه الغابة المزروعة في داخلي، سأتحدث في هذا الكتاب.

قد أنسى بعض الشجر، وقد أنسى بعض الورق، وقد أنسى أسماء العصافير التي مرت بالغابة، أو سكنت فيها، ولكنني سأحاول قدر الإمكان أن أنقل الغابة إليكم بكل جذوعها المبللة، وأزهارها المتوحشة، وصراصيرها المغنية..

لن يكون هذا الكتاب تاريخاً بالمعنى الأكاديمي للتاريخ. لأن التاريخ هو علم الحوادث الميتة، علم الحوادث التي توقفت عن الفعل والانفعال.

ولن يكون هذا الكتاب بحثاً جيولوجيًّا لمادة قصائدي، وتربيتها، وتشكيلها. فالقصيدة ليست إناء رومانيًّا أو فينيقيًّا من الفخار تنتهي مهمتنا بقراءة الكتابة المحفورة عليه.

القصيدة ليست مادة منتهية، ليست زمناً ميتاً. إنها جسر ممدود على كل الأزمنة.

إن «هاملت» لا ينتمي إلى العصر الإيليزابيتي فقط.. ولكن ظله ينسحب على كل العصور. وحرية «بول إيلوار» ليست حرية فرنسا وحدها، وإنما هي حرية الزنوج، والفيتناميين، والفلسطينيين وكل من يزرعون الرماح في لحم جلاديهم.

ودم «لوركا» المسفوح في بساتين غرناطة، ليس دماً أندلسياً فقط، وإنما هو دم البشرية كلها.

والمتنبي، هذا الذي يقف وحده في كفة الميزان، ويقف الزمان كله في الكفة الأخرى.. يبدو لي رجلاً لا جنسية له.. ولا جواز سفر.. رجلاً يقفز على جبهة العصور كلها..

إن «سيف الدولة» حادث تاريخي. ولهذا فهو قابل للموت. أما المتنبي فهو «حادث شعري» خارج سلطة الموت. وإذا كان- سيف الدولة الحمداني لا يزال يتنفس في ذاكرتنا حتى اليوم، فلأن قصائد المتنبي فيه، هي التي جعلت تنفسه ممكناً.

لن يكون هذا الكتاب درساً يُلقى في مدرسة ثانية، أو محاضرة في جامعة.

ولكنني سأذهب مع القراء في نزهة قصيرة إلى شاطئ البحر، ونقضي هناك عطلة نهاية الأسبوع.

سنلبس الملابس الصيفية الخفيفة، ونأخذ معنا الساندويتش وزجاجات الكولا، والبيك آب، وورق اللعب.

سأحدثهم، وأنا متمدد على الرمل، عن أخباري وعن أسفاري، وعن أشعاري. سأحدثهم عن بداياتي، وعن هواياتي، وعن صديقاتي.

سأحدثهم عن أسرتي، وعن داري، وعن مدرستي، وعن الخلفية العائلية والاجتماعية والثقافية التي تقف وراء شعري.

سأحدثهم عمن رموني بالورد، وعمن رموني بالحجارة. عمن عانقوني ومن صلبوني.

سأحدثهم عن القصائد التي صنعت مجدي، وعن القصائد التي حملت حتفي.

سأتحدث عن أصدقائي وعن أعدائي. عمن نثروا في طريقي

الزنابق.. ومن رفعوا في وجهي البنادق..

ومنذ الآن أقول: إنني أحبهم جميعاً، حاملي الزنابق، وحاملي البنادق، وأمد لهم يدي مبتسماً وشاكراً.

فمن صوت القبلات عرفتُ حجم صوتي ومن اصطدام السكاكين بلحمي، عرفت أبعاد جسدي.

من المديح تعلمت كثيراً. ومن الشتيمة تعلمت أكثر.

تعلمتُ أن كل كلمة يرسمها الشاعر على ورقة، هي لافتة تحدٍّ في وجه العصر. وأن الكتابة هي أحداث خلخلة في نظام الأشياء وترتيبها. هي كسْرُ قشرة الكون وتفتيتُها.

ولأن الشيء المكسور يدافع دائماً عن نفسه بالصراخ والضوضاء، تصبح الكتابة- ولا سيما في البلدان المتخلفة التي تنام تحت لحاف الخرافة والتقاليد- قتالاً حقيقيّاً بالسلاح الأبيض.. بين مطرقة الكاسر وأجزاء الشيء المكسور.

من الدم السائل على وجهي وثيابي، تعلمتُ أن الأدب ليس مخدة من ريش العصافير، ولا نزهة في ضوء القمر.

تعلمت أن الأدب ليس زهرة نشكها في عروة سترتنا، ولكنه صليب من المتاعب نحمله على أكتافنا..

الأدب جزيةٌ وضريبةٌ ومشيٌ مستمر على سطح من الكبريت الساخن.

الأدب ليس ابن السهولة ولا هو ابنُ المصادفة.

أقول هذا لكل الذين يحسبون أن الموهبة ورقة يانصيب رابحة

تخرج من كيس..

لا علاقة للأدب باليانصيب أو بالحظ.. والشهرة ليست مائدة ربانية تهبط من السماء.

الحاوي، يستطيع أن يخرج من قبعته عشرات الصيصان والمناديل الملونة.. ولكنه يعجز عن إخراج دانته واحد.. أو لوركا واحد، أو مايا كوفسكي واحد..

من رحم الصبر يخرج الأدب. من رحم الشغل والمعاناة والفجيعة.

هذا الكتاب سيكون نوعاً من السيرة الذاتية.

والسيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة في تاريخ أدبنا. الأديب العربي لا يحب السفر في داخل نفسه، ولا يحب استعمال المرايا.

حديث النفس للنفس في بلادنا مكروه، نحن لا نفهم المونولوج الداخلي، ونعتبره نوعاً من الغرور والنرجسية.

الشاعر العربي يبقى صامتاً بانتظار حلقة تأبينه. فحفلات التأبين هي المناسبة الذهبية التي يجلس فيها النقاد على قبر الشاعر كي يلعبوا الورق..

وأنا طبعاً لن أسمح لأحد أن يلعب الورق على قبري. لأنني أريد أن أشترك في اللعبة..

نزار قباني سنة ١٩٧٠.

***

من أوراقي المجهولة
(سيرة ذاتية ثانية)
الجزء الأول

١

هناك أوراقٌ في جواريري، لم أنشرها من قبل.. لا خوفاً، ولا تقية، ولا رغبة في التنكر والتخفي.

فأنا شاعر مكشوف على الجهات الأربعة، كمنارة البحر، ولا يمكن لأحد أن يتهمني بأسريَّة، أو الباطنية.

كما لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أنه شاهدني، على مدى خمسين عاماً، متنكراً في الشارع العام، أو على ورقة الكتابة.

كنت أرفض دائماً أن أكون (شاعراً سرياً)، أكتب قصائدي بالشيفرة أو بالحبر الأبيض. لأن السرية كانت ضد طبيعتي، وكانت تعطيني صنعةً (مخابراتية) لا تليق بعفوية الطفولة.

٢

لستُ مغرماً بوضع الماكياج على وجهي.. أو على قصائدي.. فالماكياج الكثير هو مهنة الراقصات، والممثلات، ومذيعات التليفزيون.

وعلى الشاعر الذي يحترم نفسه، ويحترم شعره، أن يظهر على المسرح بوجهه الطبيعي، وصوته الطبيعي. دون أن يلبس (الباروكة) ويضع على عينيه الرموش الصناعية..

٣

الكتابة هي مواجهة مكشوفة بالسلاح الأبيض.

أما استعمال الملابس المستعارة، والأسماء المستعارة، والتواقيع المستعارة، فهو دوران، ومخاتلة، وهروب إلى الخطوط الخلفية.

طبعاً هناك كتاب وشعراء غربيون وعرب كثيرون، استعاروا أقنعة تاريخية ليتكلموا بلسانها، وبالنيابة عنها، كمارك أنطونيو، وكليوباترا، وعنترة، وعبد الرحمن الداخل، ويوليوس قيصر، وقيس بن الملوح، وليلى العامرية، وعطيل، والحلاج، والحسين ابن علي، وعمر الخيام..

ولكني شخصياً لم أعمد إلى هذا (الدوبلاج) الشعري، وفضلت دائماً أن أظهر على المسرح بوجهي الحقيقي، وصوتي الحقيقي.

٤

وعندما كتبتُ سيرتي الذاتية المطوّلة (قصتي مع الشعر) في السبعينيات، كنت مقتنعاً أن ما رويته عن رحلتي الشعرية كنهاية الكلام.. وأنني عصرت نفسي عن آخرها، وفتحت كل صناديقي، فلم يبق في حوزتي ورقة واحدة لم أرسلها إلى المطبعة، ولم يبق في خزانتي بذلة أو ربطة عنق واحدة لم ألبسها في الحفلات العامة.

لكنني بعد مرور ربع قرن على صدور (قصتي مع الشعر) بدأت أحس أن الشاعر لا يمكنه أن يقفل صنبور الماء بشكل اعتباطي، ويمنع مياه الذاكرة من التدفق. ولا سيما إذا كان هذا الشاعر لا يزال يحرث، ويزرع. ويقدم للناس في كل موسم فاكهة الشعر.

لا يمكن للشاعر أن يتخذ قراراً منفرداً بإقفال الستارة على المتفرجين الجالسين في المسرح، ويقول لهم: (مع السلامة.. انتهت

الرواية)!..

الرواية لا يمكن أن تنتهي بهذه السهولة..

والأضواء لا يمكن أن تطفأ بأمر من عامل الكهرباء..

وباب المسرح لا يمكن أن يُغلق على الممثلين قبل أن ينتهوا من قراءة نصوصهم.

إن السيرة الذاتية لشاعر ليست نصّاً مغلقاً، ولا هي رواية تنتهي بزواج الأبطال أو موتهم..

فما دام الشاعر (يحيا) وما دامت هرمونات الكتابة تتكاثر وتتحرك، وتسافر في جسده، وما دام برق الشاعر يضيء في رأسه وفي أصابعه.. فلا يمكننا التعامل معه كما نتعامل مع لمبة كهربائية محترقة.. أو مع سيارة فرغت بطاريتها.

تعبير آخر، لا يمكن حبس البحر في لوحة زيتية، لأن اللوحة لا يمكن أن تكون بالتأكيد نهاية البحر..

٥

رغم كوني شاعراً عاش خمسين عاماً تحت دواليب المطبعة.. ورغم أن لحمي متناثر بين أسنان الصحافة العربية.. رغم أن أسراري معروضة في محطات المترو.. وأكشاك بيع الجرائد.. فإنني أشعر أن حنفية الماء لم تنشف، وأن خريف الذاكرة لم يُسقط كل الأوراق..

رغم كل هذا فأنا أشعر أن الفيلم الذي صورته في السبعينيات أصبح اليوم، مع التقدم الخطير الذي طرأ على التقنيات البصرية والسمعية، فيلماً من الماضي، وأنه لابد من إعادة تصويره، وإخراجه،

من جديد على ضوء الحداثة السينمائية، والتسجيلات الصوتية البالغة الدقة (H١-F١).

وهذا ما قررت أن أفعله، حتى تكتمل إضاءة اللوحة من جميع جوانبها، وعرضها في صالة حديثة، بحيث يتاح للأجيال العربية التي ولدت في السبعينيات، أن تسمع قصة الشعر من فم الشاعر نفسه، لا من فم النقاد إذا وجدوا..

إن عقل الكاتب مجهز بآلاف الهوائيات التي تلتقط أدق الذبذبات. وعينه كالفيلم النيغاتيف (النيجاتيف) في آلة التصوير، يلتقط ألوف التفاصيل الصغيرة.

وما دام الكتاب يعيش.. ويكتب.. وينتج.. فإن عملية التصوير، و التحميض، والطبع في الغرفة السوداء، لا تتوقف..

إنني أمسك الكاميرا في نهايات هذا القرن، لأسجل آخر اللقطات الشعرية الممكنة. لأن كل المؤشرات تدل على أن إنسان القرن الواحد والعشرين لن يتذكر ما هو الشعر.. ولن يرى نماذجه إلا في المتاحف.

٦

عندما كنتُ في سن الثالثة عشر، كان ضيوف أبي يسألونه:

- ما هي اهتمامات نزار؟ ما هي هواياته؟ ماذا يريدُ أن يكون؟..

فيجيبهم أبي بكل بساطة:

ابني: يريد أن يكون شاعراً..

فيتغير لون سائليه، ويتصبب العرق البارد من جباههم، فيلتفتون إلى بعضهم قائلين:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. قل لن يصيبنا إلى ما كتب الله لنا..

كنت أسمع التعليقات الدراماتيكية، فأتصور أن الشعر والكارثة شيء واحد.. وأن عفريتاً من العفاريت قد ركبني، ولابد من أخذي إلى أحد الشيوخ الصالحين في حارتنا، ليكتب لي حجاباً يُشفيني من كوابيسي.. ويطرد العفاريت من رأسي..

كانت أمي مقتنعة بصدد العفاريت.. وبقدرتهم على إيذائي.. بذلك كانت تلابس ملائتها كل يوم، وتجرني من يدي إلى أقرب شيخ تعرفه، وتعطيه أسوارها الذهبية.. ثمناً لطرد العفريت.. فيأخذ الشيخ الأسوار.. ويتقاسمها مع العفريت..

أما أبي.. فلم يكن يخشى سلطة العفاريت. ولكنه كان يخشى سلطة أمي!..

٧

إن ربط الإبداع بالجن والعفاريت.. والأرواح الشريرة.. تكتيك عدواني مقصود.. غايته الترهيب والتخويف..

فالمتضررون من الشعر كثيرون، والمتربصون به كثيرون، والخائفون منه كثيرون.. إنه يدعو إلى تغير الإنسان، وتغيير العالم.

فرجال الدين كانوا ضده.. والعلمانيون كانوا ضده..

والماركسيون كانوا ضده.. والرأسماليون كانوا ضده..

والمحافظون كانوا ضده.. والتقدميون كانوا ضده..

والفلاسفة كانوا ضده.. والعلماء كانوا ضده..

وحدهم الأطفال، والنساء، والمجانين كانوا مع الشعر..

٨

وعندما بلغتُ الثلاثين، ونضجت تجربتي الشعرية، اكتشفت أن الشعر عمل من صناعة الإنسان وحده.. ولا علاقة له بالشياطين ولا بالملائكة.

فالشياطين خبثاء.. وماكرون.. ودساسون؛. يشعلون الفتن، ويحرضون على الحرب، ويتدخلون في الحياة الزوجية، ويحطمون أية علاقة جميلة بين حبيب وحبيبته.. وهذا يتنافى مع طهارة الشعر..

أما الملائكة فإنهم مشغولون بطهارتهم، ونظافتهم، وغسل أجسادهم بالصابون والكولونيا. كما أن حيادهم الجنسي لا يسمح لهم بقراءة قصيدة حب يكتبها رجل لامرأة.. واستيعاب مضمونها..

أي أن الملائكة جنس غير شعري..

لذلك لم يرد ذكرهم في أي أنطولوجيا شعرية، ولم نسمع عن ملاك واحد نزل إلى الأرض، وحضر أمسية شعرية!!..

٩

إذاً، فقد كانت مهمتي الأولى، حين بدأتُ الكتابة أن أحرر الشعر من كل السلطات غير البشرية وعلى رأسها سلطة الملائكة وسلطة الشياطين.

منذ بداياتي الأولى، اكتشفتُ أن الشعر هو كلام راقٍ يصنعه الإنسان لتغيير مستوى الإنسان.

لم يكن عندي أوهامٌ ميتافيزيكية وفانتازية وتزيينية حول الشعر، ولم أكن أعتبره لعباً لغوياً صرفاً لا غاية له سوى تحريك حجارة اللغة.

لم أكن أؤمن بشعر لا ينفع ولا يضر ولا بكتابة لا تغير الشرط الإنساني، ولا بشاعر لا يشارك في صياغة الوجدان العام، ولا بقصيدة لا تسهم في تأسيس حضارة.. ولا بخطاب لا يخاطب أحداً..

لم أكن أفكر في كتابة معلقة جديدة تضاف إلى المعلقات العشر، ولم أكن أريد أن أكتب لامية العرب.. أو بائية العرب.. أو رائية العرب..

كنتُ أريد فقط.. أن أكون وجدان العرب.

هذا ما اشتغلت عليه خمسين عاماً.. وأرجو أن أكون قد حققت شيئاً من هذا الحلم العظيم.

١٠

تحقيق مثل هذا الحلم الجميل، كان يحتاج إلى لغة ديمقراطية، لا أثر فيها للغرور، والتعالي، والتثاقف الكاذب..

لغة تفوح منها رائحة الأسواق القديمة، والمقاهي الشعبية، والحارات المعجونة بعرق الناس، وأنفاسهم، وأصواتهم، وأغانيهم المغسولة بماء العشق..

لغة لها طعم القرفة، واليانسون، والقهوة المغلية بحبة الهال..

لغة تدق على أبواب الجيران.. وتسهر معهم، وتلعب الورق، وتأكل البقلاوة وحلاوة السمسم معهم..

لغة تخلع نعليها وتجلس على الأرض.. لا على مقعد وتثير من طراز لويس السادس عشر..

لغة تتكحل بها النساء.. وتتجمل بها العرائس.. ويشربها الأطفال

مع الحليب قبل الذهاب إلى المدرسة.

لغة تطرح بين أيدي الناس، الخبز الشعبي، دون تفريق بين المقتدرين والمحرومين، والدراويش والبرجوازيين، والمتعلمين وأنصاف المتعلمين.. والذكور والإناث، والأطفال والمسنين، ومن يحملون شهادة الدكتوراه.. ومن يحملون شهادة التطعيم ضد الجدري.

لغة تنتقل من طنجة إلى عدن.. ومن بيروت إلى حضرموت.. ومن دمشق إلى الكوفة.. ومن القاهرة إلى أم درمان.. دون أن يكون معها تأشيرة دخول، أو شهادة صحية تثبت خلوها من جراثيم الانفصالية العربية!!..

عن هذه اللغة البعيدة والقريبة، والممكنة والمستحيلة، كنتُ أبحث..

وحين عثرت عليها بعد خمسين عاماً، شعرت أنني عثرت على مفاتيح الجنة!!..

* * *

الجزء الثاني

١١

إن الوصول إلى وجدان مئتي مليون عربي، واختراق سماوات هذا الوطن الذي لا يسمح لأحد بالطيران في مجاله الجوي حتى العصافير.. كان مغامرة خطيرة أشبه بمغامرات ماركو بولو.. والسندباد البحري..

والسؤال الذي طرحته على نفسي، منذ خربشاتي الشعرية الأولى، هو: بأي لغة أستطيع اختراق الخريطة الثقافية العربية؟؟

بالطبع هناك لغات عربية كثيرة، وخرائط كثيرة، وشعراء عرب أكثر من محصول الرز في حقول الصين..

ولكن ما هي الطريقة التي يستطيع بها شاعرٌ أن يفتح أبواب اثنتين وعشرين مغارة عربية.. مختومة بالشمع الأحمر منذ أيام امرئ القيس؟؟

الطريقة هي أن تنسى القاموس.. وتبدأ بتأليف قاموسك الشعري الخاص.

هي أن تنسى صورة عنترة بن شداد المعلقة في غرفة نومك، بشواربه المبرومة، وسيفه المسلول، وتضع مكانها صورتك.. وأنت بالقميص الشورت.. وسروال الجينز الأزرق.. وحذاء المطاط..

المهم أن تحلق ذقنك صباحاً.. وتنسى ذقون الأجداد.. وتعيش زمنك الشعري لا زمن الآخرين، وتكتشف تاريخ ميلادك، وهويتك، وشرعيتك الوجودية والثقافية.

١٢

اللغة هي شرعية الشاعر.. وبدون هذه الشرعية لا يمكن لأية قصيدة أن تدخل جامعة الدول العربية، أو هيئة الأمم المتحدة، أو منظمة حقوق الإنسان..

لذلك فأنا (رسمتُ) بالكلمات.. ولم (ألعب) بالكلمات.

ولم أتورط في النقش، والحفر، وشغل الفسيفساء. ولم أضيع وقتي

في صناعة صناديق البلاغة.. وقصائد من البلاستيك..

كما أنني لم أسعَ للحصول على مقعد دائم في مجمع اللغة العربية، لأنني أؤمن أن اللغة يصنعها الشعراء، لا النظامون، والنجارون، وإسكافيو الشعر!!.

١٣

كثيراً ما تساءلتُ، وأنا أحاسب نفسي، بعد كل أمسية شعرية حاشدة كنتُ أقيمها في إحدى المدن العربية:

– لماذا يحدث هذا؟ وما هو السر الذي يدفع الناس إلى الاحتشاد في القاعة، وعلى الأبواب، وفي الطرقات، وفي الميادين والحدائق التي تحيط بمكان الأمسية؟ هل يأتون من أجل الشعر، أم من أجل شعري؟ هل أنا شاعر محظوظ.. أم أنا شاعر مجتهد ومواظب على مذاكرة دروسه؟ أم أنا شاعر اكتشف معادلة الشعر.. أم أنا شاعر تحيط به الملائكة، ويحظى برضا الله، ورضا الوالدين.. كما كانت تقول أمي رحمها الله..

إنني أؤمن برضا الله والوالدين بلا جدال، وقد تعودت أن أشكر ربي، وأترحم على أبي وأمي، بعد كل قصيدة ناجحة أكتبها..

أما كوني محظوظاً، كما قال لي مرة أحد الصحافيين المشاكسين، فتبرير غبي وغير مقبول. فالحظ وحده لا يكفي لجعل المتنبي عظيماً من عظماء الشعر، ولا يكفي لجعل شكسبير سيداً من أسياد المسرحية الشعرية.

فالقصيدة الجيدة لا تخرج للشاعر من كيس.. ولا تطلع له من

أوراق اليانصيب. وإلا لكانت دواليب الحظ هي التي تصنع الشعراء.. وتقرر مصائرهم.

إن الموهبة تأتي أولاً.. والشغل يأتي ثانياً.. والثقافة تأتي ثالثاً.. والمعاناة اليومية تأتي رابعاً.. والكاريزما الشخصية تأتي خامساً..

فلا يمكن لشاعر بليد.. أو منطفئ.. أو غليظ.. أو ثقيل الدم.. أن يصبح شاعراً كبيراً.. ولو ربح كل أوراق اليانصيب في العالم..

١٤

الشعر قدر لا يمكن للشاعر أن يهرب منه.. أو يعصي أوامره.. أو يشرك به أحداً..

والقصيدة هي امرأة أحادية الهوى، تختار رجلاً واحداً.. وتحب رجلاً واحداً.. وتتزوج رجلاً واحداً. وترفض الازدواجية.. وتعدد الأزواج، ولا تقبل بفكرة (الضرة).. أو المرأة الثانية..

وهذا يعني أن على الشاعر أن يكون شاعراً فقط.. وأن لا يقوم بأية مهنة أخرى لزيادة دخله.. أو تحسين وضعه الاجتماعي..

على الشاعر أن يبقى (متفرغاً) حتى الموت للشعر.. لا أن يعمل قبل الظهر موظفاً في وزارة المالية.. أو خفيراً في مديرية الجمارك.. أو مصلح سيارات، أو شرطي سير.. ويعمل بعد منتصف الليل شاعر غزل..

إن (تعدد الكارات) لا ينفع في الشعر. وجميع الشعراء الذين اشتغلوا في الصباح ماسحي أحذية.. ظلت روائح البويا تعبق من قصائدهم..

١٥

ثم إن على الشاعر أن يذيع منذ البداية بيانه الشعري الأول، ويحدد منهجه، ورؤياه، والدروب التي سيسلكها للوصول إلى المدينة الفاضلة.. كما يفعل جميع الانقلابيين ودعاة التغيير.

هذا المانيفستو الشعري ضروري جداً لإقناع الناس في الذهاب إلى صناديق الانتخاب..

ولأن شعراءنا لا يؤمنون بالأسلوب الديمقراطي، ولا بالحوار، ولا بالتعددية، كما لا يؤمنون بأهلية الجماهير ومستواها الثقافي الذي يسمح لها بالتصويت.. فقد صادر الجيش صناديق الانتخاب.. وأعلن الأحكام العرفية.. ومنع الشعراء من ارتكاب قصيدة النثر حتى عام ٢٠٠٥.

١٦

إذن لابد لكل شاعر أن يُعـرِّف بنفسه، ويقدم نبذة عن سيرته الذاتية والثقافية C.V مع نماذج من قصائده إلى اللجان الشعبية لقراءة الشعر.

هذه اللجان موجودة في كل العواصم العربية، وهي دائمة الانعقاد.. وقراراتُها لا تقبل المراجعة ولا الاستئناف ولا التمييز.

أنا شخصياً مررت، ولا أزال أمر، على كل اللجان الشعبية، وأجبتُ على كل الأسئلة، وتحاورت مع جميع الممتحنين.. وكانت علاماتي الشعرية جيدة.. من غير رشوة.. ومن غير وساطة.

السبب، أنني كنتُ واضحاً في طرحي لمسألة الشعر، وبعيداً عن

الجدل البيزنطي، والتنظير البنيوي، واستعراض عضلاتي الثقافية.

شرحت لهم بكل بساطة موقفي من الشعر، ومطالبتي في ديواني (طفولة نهد) الصادر عام ١٩٤٨ بتأميم الشعر، وتحويله إلى خبز يومي، وقماش شعبي.. ومادة توزع على المستحقين، كالرز والشاي وحليب البودرة.

وعندما قدمتُ لأعضاء اللجنة نماذج من شعري، لم يجدوا أي تناقض بين أفكاري وبين أشعاري. وبين أحلامي وبين النص المكتوب..

كان التنظير والتنفيذ متطابقين. وعندما سلمني رئيس اللجنة دبلوم الشعر. سالت دموعي على أوراقي.. ورجعت إلى البيت لأكتب وظائف، وأذاكر دروسي.. كأنني لا أزال تلميذاً في قسم الحضانة.

١٧

عندما بدأت ثورة الحداثة في منتصف الأربعينيات. كان الشعراء العرب يعرفون جيداً ماذا يريدون، ويعرفون الطريق التي يمشون عليها، والأفق الذي يتطلعون عليه. وكان لكل واحد من هؤلاء الشعراء خريطته الشعرية التي رسمها لنفسه.. ووسائله الخاصة بالسفر واكتشاف الطرق.

كان لبدر شاكر السياب خريطته، ولنازك الملائكة خريطتها.. ولبلند الحيدري، وسعد يوسف، وعبد الوهاب البياتي، وصلاح عبد الصبور، وخليل الحاوي، وأدونيس، ويوسف الخال خرائطهم..

لم يكن هناك فوضى، ولا ارتجال، ولا حماقات لغوية أو عروضية

أو جمالية.. كان كل واحد يرسم على طريقته ويستعمل الألوان على طريقته، ويعرض لوحاته الشعرية على طريقته.. دون ابتذال ودون إهانة لفن الشعر.

في تلك الفترة الزاهية، كانت ورشة التجديد تصحح مسار الشعر العربي التقليدي وتضيف إليه ألوانًا جديدة، وأبعادًا جديدة، دون أن تشوه بنائه الأساسي.

أي أن المسئولية الإبداعية كانت لا تتعارض مع المسئولية الأخلاقية. وكان المعماريون يصنعون الشعر العربي بيتاً جميلاً يجمع جراءة الحداثة إلى أصالة التراث.

١٨

أما اليوم، فإن الحداثة الشعرية تخلت عن المسئوليتين الإبداعية والأخلاقية معاً.. فهي زفة لا تعرف فيها الداعين من المدعوين ولا أهل العريس من أهل العروس، ولا كبار الضيوف من الجارسونات، ولا المغني من أفراد الكورس.. ولا الراقصة من ضارب الطبلة..

إن كان كل واحد من شعراء الحداثة (يرتجل) قصيدته دون أن يكون أمامه نوتة موسيقية.. تماماً كما يرتجل رعاة الغنم المواويل على رؤوس الجبال..

لذلك لم يتمكن النقد من دراسة شعر الحداثة، والتعريف به، لغياب النصوص.. وغياب القاعدة، وغياب الجُمَل والمفاتيح الموسيقية.. وغياب آلات العزف.. والعازفين..

وما دام أهل الحداثة لا يعترفون بأهمية الكونسرفاتوار، وأهمية

موزعي الموسيقى.. وأهمية الهارموني والتنسيق الأوركسترالي، فسوف يبقون كأمير البزق محمد عبد الكريم يرتجلون العتاب والميجنة وأبو الزلف فلا يسمعهم سوى الضياع.. وبنات آوى..

إن قصائد الحداثة ليست سوى مصادفات لغوية بحتة، تتلاقى فيها الكلمات بالكلمات دون موعد سابق، ودون ترتيب سابق.. ودون أي رغبة أو اشتهاء، ولا يوجد في الأدب شيء اسمه المصادفة.

١٩

إنني أعرفُ أن كلامي عن الحداثة، سوف يغضب الحداثين، فيصدرون قرارًا بفصلي عن اتحادهم، وإخراجي من جنتهم، وتصنيفي بين الشعراء الجاهليين.

هل هذه تهمة؟

إذا كانت هذه هي تهمتي الجميلة. فإنني فخور بها.

لأن الشعر الجاهلي من أرقى نماذج الشعر وأكثرها عنفواناً وحضارة.

فلا ليتني أتعلم من عنترة بن شداد، كيف يرتقي الإنسان بعشقه إلى هذا المستوى الرسولي، وكيف يكون ثغر الحبيبة جبهة يطيب عليها الموت والشهادة، وكيف يكون حب الرجل للمرأة شرفاً ووسام بطولة..

«ولقد ذكرتك والرماح نواهل منيّ، وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعتْ كبارق ثغرك المتبسمِ»

هل يمكن لعاشق معاصر من خنافس هذا الزمن، أن يقول مثل هذا الكلام الجميلِ، وهل يمكن أن يضحي بربطة عنقه، أو بزر من أزرار قميصه المنشي للفتاة التي يرافقها؟.

٢٠

إنني أعتقد: أن قصائد الفرزدق، والنابغة الذبياني، وطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم.. وامرئ القيس أكثر حداثة من كل ما نقرؤه اليوم من محاولات لمحو ذاكرتنا الشعرية.

لا أحد يستطيع أن يلغي زمناً شعريّاً عظيماً بجرة قلم..

ولا أحد يستطيع التباهي بقتل أبيه، إذا لم يكن أفضل منه..

ولا أحد يستطيع أن يبارز عنترة إلا إذا كان أشجع منه وأكثر شاعرية..

وحتى كتابة هذه السطور لم أعثر على شاعر حداثي واحد يمكنه أن يمد يده إلى شوارب عنترة، دون أن يستعين بحفاضات الأطفال .Pampers

❊ ❊ ❊

الجزء الثالث

٢١

هناك حوادث مرت بحياتي كشاعر، غيرت مساري تغييراً جذريّاً، وقلبت خرائطي واختياراتي.

وثمة أشخاص قابلتُهم بالمصادفة، شعرتُ أنهم مرسلون من عالم آخر، جاؤوا ليبلغوني أمراً.. أو رسالة.. ثم يختفون..

وثمة مدن دخلتُها وأنا خالي البال، وخرجتُ منها وثيابي تشتعل بنار العشق، وأوراقي وحقائبي حبلى بالقصائد، وقلبي أكواريوم من السمك الملون.

وفي هذه الأوراق سأقول كل ما عندي، عن القصص الغريبة التي عشتها، والأشخاص الغامضين الذين التقيتهم، والمدن السحرية التي دخلتُ إليها كسائح، وخرجتُ منها على صورة عصفور.. أو قوس قزح..

هذه الحكايات كانت مطمورة في قعر الذاكرة.. ومغطاة بحشيش البحر..

وقد قررت أن أعومها كأية باخرة غارقة، وأستعيد ما كان عليها من كتب، وأوراق، ودفاتر مذكرات، وجوازات سفر.. وأمتعة.. قبل أن تأكلها الأسماك..

إنها قصص واقعية بكل معنى الكلمة، وأنا أقصها عليكم كما جرت تماماً أي بدون أي (رتوش).. أو تكحيل أو تجميل.

وأنا إذ أقوم بدور الراوي لهذه الحكايات، فإنني لا أفعل ذلك من باب النرجسية والاستعراضية، ولكني أقوم بذلك لتقديم شهادات إضافية عن الشعر، وعن العلاقة التي تصل إلى حدود الكهانة والسحر، بين الشاعر العربي المخلوق من صلصال وطين، وبين جمهور عربي يصر على اعتباره من جنس الملائكة الذين لا يأكلون.. ولا يشربون.. ولا يقربون النساء..

٢٢

عام ١٩٥٤ في لندن، كان عام الرياح والزوابع والالتحام بالسلاح الأبيض مع الأوساط الأدبية، والدينية، والسياسية، والبرلمانية.

والمعارك الطاحنة التي دخلتُها، لم تكن بسبب (داحس) أو (الغبراء).. أو بسبب الاختلاف على ناقة، أو نبع ماء.. ولكنها كانت بسبب قصيدة عنوانها: (خبز.. وحشيش.. وقمر..) أقامت الدنيا كلها فوق رأسي. ولم تقعدها..

أرسلتُ القصيدة من لندن إلى صديقي الدكتور سهيل إدريس، صاحب مجلة (الآداب) اللبنانية المعروفة بخطها القومي والتحرري. كنت آنئذ أعمل دبلوماسيّاً في السفارة السورية في لندن.

لم يعترض سهيل على القصيدة، ولم يتخوف منها، بل نشرها افتتاحية في مجلته، كما كان ينشر كل ما أرسله إليه من قصائد حب لا تخلو من الجرأة، والاقتحام، والبهارات الجمالية والجنسية.

ولكن ما أن صدرت (الآداب) حتى قُرعت أجراس الخطر، في كل عواصم العالم العربي، وطالب المتزمتون بشنقي، وطردي من

وزارة الخارجية السورية، لأنني حسب اجتهادهم، خنت بلادي، وانحرفت عن عقيدتي، وأصبحت عميلاً «للأنتلجانس سيرفيس)، لأنني ألصقت على غلاف رسالتي المرسلة إلى (الآداب).. طابعاً بريطانياً..

هكذا بكل بساطة أصبحت عميلاً، لأنني هاجمت الكسالى، والمسطولين، وآكلي القضامة والبزر.. وراقصي السزار.. والدراويش.. والمنبطحين في منتصف كل شهر عربي، تحت أقدام ضوء القمر:

(ما الذي يفعله قرص ضياء؟
ببلادي؟
ببلاد الأنبياء..
وبلاد البسطاء..
ماضغي التبغ.. وتجار الخَدَرْ..
ما الذي يفعلها فينا القمر؟
فنُضيع الكبرياء..
ونعيش لنستجدي السماء..
ما الذي عند السماء؟
لكسالى.. ضعفاء..
يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر!!).
(في ليالي الشرق لما يبلغ البدر تمامهْ..
يتعرى الشرق من كل كرامهْ..

ونضال..
فالملايين التي تركض من غير نعالٍ..
والتي تؤمن في أربع زوجاتٍ..
وفي يوم القيامة..
الملايين التي لا تلتقي بالخبز إلا في الخيال..
والتي تسكن في الليل بيوتاً من سعال..
أبداً ما عرفت شكل الدواء..
تتردى جثثاً تحت الضياء..)
(في بلادي..
في بلاد البسطاء..
حيث يحيا الناس من دون عيون، ويعيشون على الضوء الذي لا يبصرون..
وينادون الهلال:
(يا هلال..)
أيها النبع الذي يمطر ماس..
وحشيشاً. ونعاس..
أيها الرب الرخامي المعلقْ..
أيها الشيء الذي ليس يصدَّقْ..
دمت للشرق.. لنا.. عنقود ماسْ..
للملايين التي قد عُطلتْ فيها الحواس!!).

٢٣

هذه مقاطع من القصيدة- الإثم، أو القصيدة- الجريمة، التي أوصلتني إلى المجلس النيابي السوري، وهي سابقة لم تحدث في أي برلمان من برلمانات العالم، فانبرى أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا، النائب عن جماعة الإخوان المسلمين، بتقديم استجواب عنيف لوزير الخارجية آنئذ الأستاذ خالد العظم، طالباً منه إحالتي إلى اللجنة التأديبية، وطردي من وزارة الخارجية.

وتأييداً لأقواله، قام النائب الزرقا، بتلاوة القصيدة على النواب، وكان لحسن حظي، فصيح اللسان، رائع الإلقاء، فما أن انتهى من تلاوة القصيدة، حتى انفجرت قاعة مجلس النواب، وشرفة المتفرجين ورجال الصحافة بالتصفيق.. فعاد النائب والعرق يتصبب من جبينه، إلى مقعده.. مخذولاً.. ومحبطاً..

وباظ الاستجواب!!..

٢٤

في اليوم التالي لجلسة الاستجواب قام النواب الأصليون بزيارة الرئيس خالد العظيم في مكتبه بوزارة الخارجية، وأثاروا قضية القصيدة مرة أخرى، مطالبين بإحالتي على اللجنة التأديبية للوزارة. فاستمهلهم الرئيس العظم قليلاً حتى يقرأ ملفي الوظيفي الذي حمله إليه الأمين العام لوزارة الخارجية.

وعندما انتهى الرئيس العظم من قراءة ملفي قال لهم:

- يا حضرات النواب الأعزاء:

أحب أن أصارحكم أن وزارة الخارجية السورية فيها نزاران..

نزار قباني الموظف، ونزار قباني الشاعر.

أما نزار قباني الموظف، فملفه الوظيفي أمامي، وهو ملف جيد، ويثبت أنه من خيرة موظفي هذه الوزارة..

أما نزار قباني الشاعر، فقد خلقه الله شاعراً، وأنا كوزير للخارجية لا سلطة لي عليه.. ولا على شعره..

فإذا كنتم تقولون إنه هجاكم بقصيدة.. فيمكنكم أن تهجوه بقصيدة مضادة.. وكفى الله المؤمنين شر القتال!!..

وانتهت المقابلة.. وخرج الشعر منتصراً..

رحم الله دولة الرئيس خالد العظم.

٢٥

وحتى تكتمل أطراف الحكايا حول قصيدتي (خبز وحشيش وقمر). أود أن أنوه بموقف كبير آخر لسفير سورية آنذاك في لندن الأستاذ فايز الخوري، وهو عالم من علماء القانون، واللغة، ومن رجالات سورية المرموقين في فترة النضال الوطني.

شكوتُ له ذات صباح، هذه الهجمة الشرسة التي أتعرض لها من الصحافة العربية، وهذه الإشاعات والأكاذيب التي يختلقونها حولي وحول القصيدة. فطلب لي السفير فنجانا من القهوة، ومد يده إلى جارور مكتبه، وأخرج دفتر شيكاته.. وقال:

-أ عزيزي نزار:

إذا كنت متضايقاً مما يقال عن القصيدة، وتريد أن تتخلص منها،

فأنا فايز الخوري مستعد أن أشتريها فوراً. فحدد المبلغ الذي تريده، وسوف أوقع لك شيكاً بالمبلغ الذي تريده. على شرط أن تضع اسمي تحت القصيدة!!.

فهدئ أعصابك يا نزار، وثق أن جميع هذه الأصوات النشاز التي تهاجمك سوف تطحنها عجلات الأيام، ولن يبقى في خزانة التاريخ سوى أنت.. وقصيدتك..

أخجلتني كلمات السفير، فكفكفت دموعي، وخرجت من مكتبه وأنا أعلى قامة.. وأكثر كبرياء.

❊ ❊ ❊

الجزء الرابع

٢٦

(نبوءة الرجل المغربي)

لا تزال صورته واضحة التقاطيع، ولا يزال صوته القوي يهدر في مسمعي، بعد مرور أربعين عاماً على لقائي الدراماتيكي معه..

بطل القصة مواطنٌ مغربي لا أتذكر اسمه، جاء عام ١٩٥٤ إلى دار القنصلية السورية في لندن في شارع **Kensington Palace Gardens** حيث كنتُ أدير الشؤون القنصلية. وطلب من السكرتيرة مقابلتي.

سألتُ السكرتيرة، إذا كان الأمر يتعلق بأي شأن من الشؤون القنصلية، أو بتأشيرة دخول متأخرة.

أجابتني السكرتيرة، إن الرجل قد حصل على تأشيرته، وإنك وقعت على التأشيرة، وانتهى الموضوع.

ولكنه عندما رأى اسمك وتوقيعك على جواز سفره، سألني إذا كان القنصل الذي وقع على التأشيرة، هو نزار قباني الشاعر.. أم أنه شخص آخر؟؟..

وعندما أجبته أن القنصل والشاعر هما شخص واحد.. ظهرت الدهشة على وجهه، والتمعت عيناه.. وطلب مقابلتك..

قلتُ للسكرتيرة: حسناً.. قولي له أن يتفضل..

وانفتح الباب، ودخل منه رجل أسمر الملامح، نحيل القامة، يحمل معه كتباً وجرائد، وتوحي هيئته الخارجية بأنه أحد الطلبة المغاربة الذين يدرسون في إنكلترا.

نهضت لاستقبال الزائر، مبتسماً، وطلبتُ منه أن يجلس ويشاركني القهوة، ولكنه امتنع عن الجلوس، وبقي مزروعاً في منتصف الغرفة، وفي عينيه شهوة واضحة للقتال والتحدي.

ظللتُ صامتاً ومبتسماً، حتى خرج الرجل عن صمته، وقال بلهجة يغلب عليها التوتر والانكسار الداخلي:

- (يا سيدي الشاعر: ولا أقول يا سعادة القنصل، لأن كل الألقاب الأخرى المضافة إلى اسمك كشاعر، لا تهمني.

قل لي بالله عليك يا سيدي، ما الذي تفعله وراء هذا المكتب؟ هل مهمتك أن تنظر في جوازات السفر، وتدقق في أسماء طالبي التأشيرات، وتُلْصق الطوابع عليها.. وتمهرها بتوقيعك الشريف؟؟

لا يا سيدي، هذا عمل يمكن أن يقوم به أي موظف من العصر العثماني، أو أي كاتب عرضحالات..

أما أنت، فشاعرنا، وصوت ضميرنا، والناطق الرسمي باسم أحلامنا، وأفراحنا، وأحزاننا، وهمومنا العاطفية والقومية.

أتوسل إليك، يا سيدي، باسم الأجيال العربية التي قرأتك، وأحبتك، وتعلمت على يديك أبجدية الحب والثورة.

أتوسل إليك باسم جميع الأنبياء والرسل، وجميع الشعراء الذين استشهدوا من أجل كلمة جميلة، أن تترك هذا المكان فوراً.. وتبقى عصفوراً يوقظ الشعوب من غيبوبتها، ويغني للحرية والإنسان من المحيط إلى الخليج..).

٢٧

.. وخرج الرجل من مكتبي دون كلمة وداع.. وغادر دار القنصلية كالبرق تاركاً وراءه كلماته الغاضبة، تشتعل كالحرائق الصغيرة في رأسي، وفي ثيابي، وفي أوراق مكتبي..

والحقيقة أن الرجل ذهب.. ولم يذهب..

لأن كلماته ظلت تطاردني اثني عشر عاماً، أي من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٦، حتى ظهر لي مرة ثانية وهو يلوح لي بمنديله، وأنا على ظهر السفينة في ميناء برشلونة، منتظراً رحيل الباخرة إلى بيروت.

كان واقفاً على رصيف المرفأ، والدمع يملأ عينيه، وعلامات الانتصار واضحة على وجهه..

وعندما بدأت الباخرة تبتعد عن الرصيف، وصلتني أصداء كلماته

وهو يقول: شكراً لك أيها الشاعر.. شكراً لأنك اخترت الشعر!!.

٢٨

في عام ١٩٩٦ أي بعد مرور أربعين عاماً على هذه القصة المثيرة، أجلس في منزلي في حي نايتس بريدج في لندن، وليس عندي من الالتزامات سوى التزامين أساسيين: التزامي نحو الشعر. والتزامي نحو الحرية.

فهل كان الرجل المغربي يدري أن كلماته الرسولية قد غيرت مسار حياتي، وأن الشرارة التي أشعلها في عقلي، أضاءت طريقي، وأوصلتني إلى مرفأ الشعر؟؟

وإنني لأتساءل اليوم، هل كان هذا الرجل مجرد سائح يطلب تأشيرة دخول من قنصلية عربية، أم أنه كان رسولاً هبط من كوكب آخر لينير بصيرتي، ويفتح عينيَّ، ويدلني على الصراط المستقيم؟.

٢٩

إنني لا أشك في أن السماء لعبت دورها في رسم مصيري.. وإنهاء حالة الازدواجية التي كنت أعيشها بين الدبلوماسية.. وبين الشعر.. بين أقنعتي.. وبين وجهي الحقيقي.

ومن المؤسف أن لعبة الدبلوماسية استغرقتني عشرين سنة، حتى جاء الرجل المغربي فألقى عصاه.. التي ابتلعت كل ملابسي الرسمية، وقمصاني المنشَّاة، وأحذيتي اللمّاعة، وربطات عنقي السوداء.. في لحظة واحدة.

هذا الرجل أدين له بحريتي.. وبإعتاق رقبتي من السيف

الحكومي الذي يصبح مع الزمن جزءاً من الرقبة..

أدين له بإنهاء حالة الفصام التي كنت أعيشها بين خطابين.. ولغتين.. وسلوكين.. وقناعين.. وعالمين متناقضين.

أدين له لأنه أخرجني من جحيم الاستقبالات، والكوكتيلات، والصالونات التي تختنق برائحة السيجار الكوبي، والثرثرة، والاستعراضية، إلى فضاءات مفتوحة على المستحيل.

وأخيراً أدين له لأنه حررني من كل السلطات الأبوية، والسياسة، والقلبية، والعشائرية، والجاهلية..

وأرجعني إلى رحم القصيدة.

٣٠

على ظهر الباخرة التي نقلتني في نيسان (أبريل) عام ١٩٦٦، من برشلونة إلى بيروت، قررت الاستقالة من عملي الدبلوماسي.

وبغير تردد، قمت بفصل (التوأم السيامي) الذي كان ملتصقاً بجسدي عن بعضه.. فتركت الطفل الدبلوماسي على ظهر الباخرة في عناية أحد البحارة الإسبان، واحتضنت طفل الشعر بذراعي.. ونزلنا معاً في مرفأ بيروت..

بعد أن قمت بعملية الفصل، استرحتُ جسديّاً ونفسيّاً، وبدأت أمشي في شوارع بيروت، بخطوات رياضيٍّ يستعد لدخول الأولمبياد.

٣١

زواج الشاعر من القصيدة زواج نهائي.

إنه زواج كاثوليكي لا مكان فيه للطلاق، أو لتعدد الزوجات..

ولا يوجد في الشعر شيء اسمه زواج عرفي.. أو زواج متعة.. أو زواج مصلحة.

ولقد اتضح لي أن جميع الشعراء الذين تورطوا (بزيجات) سرية، أو جانبية.. طمعاً بالمال، أو بالجاه، أو بزيادة الدخل، خسروا السعادة الزوجية.. والسعادة الشعرية.. معاً..

إن الشعراء- السفراء الذين يتوهمون أنهم إذا قدّموا أوراق اعتمادهم إلى الملكة إليزابيث، أو إلى الرئيس نهرو، أو إلى الرئيس شارل ديغول، أو إلى السلطان عبد الحميد، أو إلى الخديوي إسماعيل، سوف يدخلون الجنة، هم واهمون. لأن الجنة الحقيقية هي جنة الإبداع، ولأن مجد الشعر أهم بكثير من مجد حرس الشرف، والعربات المذهبة، والجياد المطهمة.. التي تحملهم إلى قصور الملوك والرؤساء.

القصيدة الجيدة التي يكتبها الشاعر.. هي ورقة اعتماده إلى الإنسانية كلها.. أما الأوراق الأخرى إلى أصحاب الجلالة والفخامة والسيادة.. فهي كتابات على الريح سوف تمحوها الريح!!..

* * *

الجزء الخامس

٣٢

لا جمارك على الشعر..

حين وصلتُ إلى مرفأ بيروت في شهر نسيان (أبريل) ١٩٦٦ على

ظهر سفينة إسبانية قادمة من برشلونة، أحسست أن السفينة رست في مرفأ الأحلام، وأن قصائدي نامت في بيت أمها وأبيها..

ومن إسبانيها حملتُ معي أثاثاً منزلياً كاملاً، وأخبرت رجال الجمارك اللبنانيين أنني شاعر سوري اختار أن يقيم في لبنان، وليس لديه في لبنان بيت، أو عنوان، أو بطاقة إقامة دائمة..

فقال لي المسئول الجمركي:

- أهلا بك في لبنان. ولكن إدخال أثاث منزلي كامل إلى لبنان، معفيّاً من الرسوم، هو من صلاحيات المدير العام للجمارك.. فهل ترغب أن تراه؟

- قلت: بالطبع.. يسعدني أن أتعرف عليه..

ودخلت على المدير العام للجمارك، فنهض من وراء مكتبه، وأخذني بالأحضان، وطلب لي القهوة.. وسألني عن شعري أولاً.. وعن صحتي وأحوالي ثانياً.. ثم طرحت عليه مشكلتي بكل طفولية..

فقال، والابتسامة الكبيرة تضيء في عينيه.. وعلى شفتيه:

- عن أي مشكلة تتحدث؟ هل يحتاج نزار قباني إلى تصريح لدخول بيته؟ إن لبنان هو بيتك.. كما هو بيت الشعر.. فلا تشغل بالك أبداً حول هذا الموضوع، فنحن في لبنان عشاق لشعرك، ولبنان لا يتقاضى رسوماً جمركية على الشعر!!..

فأهلاً وسهلاً بك في وطن الشعر.. ووطن الحب.

واستدعى معاونه، وطلب منه أن يملأ البيان الخاص بالإعفاء..

ووقعه على الفور..

٣٣

وخرجتُ من مكتب مدير الجمارك، وأنا أتعثر بدموعي، وبعد ساعات كان أثاثي المنزلي، مكوماً على رصيف مرفأ بيروت، وأنا لا أعرف إلى أين أذهب.. وأين أضع الحاوية الضخمة التي تضم أثاث بيتي في مدريد، وفي أي منطقة من مناطق بيروت سيكون بيتي؟؟

المهم، أنني أودعت أثاثي في قبو يملكه أحد الأصدقاء اللبنانيين، وذهبت إلى أحد الفنادق، ونمتُ ليلتي الأولى على صدر بيروت الحنون الدافئ.. وكلمات المدير العام للجمارك تطن في أذني:

- نحن في لبنان لا نأخذ رسوماً جمركية على الشعر!!.

أهلاً وسهلاً بك في وطن الشعر.. وفي وطن الحب.. الحب.. ال.. ح.. ب..

٣٤

هذا الحب الأول الذي داهمني وأنا واقف على مرفأ بيروت في ربيع عام ١٩٦٦ خضني.. ودوخني.. وغير تركيب دورتي الدموية.

تأملت السفن الراسية في المرفأ، ورأيت اللنشات الصغيرة تنقل الركاب، وطيور النورس تحمل في أجنحتها رائحة السفر.. ورائحة الأعشاب البحرية.. ورائحة الحرية..

شعرت بطمأنينة عجيبة على مصيري، وأحسست أن الرياح حملتني إلى قدري الجميل، وإلى جزيرة الشعر، والقمر، وأزهار الغاردينيا.

وتأكدت من رضاء الله والوالدين عليَّ..

فماذا كان يحدث لو أنني نزلتُ في مرفأ مرسيليا.. أو سنغافورة.. أو هونكونغ؟؟..

بالتأكيد، سوف أكون شاعراً صينيّاً!!.

ولكنني هبطتُ كما هبط الأمير الصغير في رائعة سانت أكزوبري على (صخرة الروشة).. فوجدت الطيور البحرية بانتظاري، وصيادي السمك بانتظاري.. ومقهى (دبيبو).. ومقهى (الدولتشه فيتا).. ومطعم نصر.. والعربات التي كانت تبيع على الكورنيش الجميل، قهوة الأكسبرسو، ومناقيش الزعتر.. والأولاد الذين كانوا يبيعون أطواق الغاردينيا للعشاق.. وجدتهم جميعاً بانتظاري.

وهكذا وجد (الأمير الصغير) جزيرة أحلامه، وبدأ منذ صباح اليوم التالي، يحرث أرض بيروت ويزرعها ورداً، وعنباً، وتفاحاً.. وقصائد.

حتى صارت مزرعةُ الشعر التي أنشأها ملجأً لآلاف العصافير..

٣٥

في بيروت، رجعتُ قطعة واحدة بعدما كنت قطعتين..

هذه الازدواجية الرهيبة، استمرت مع الأسف إحدى وعشرين سنة (١٩٤٥-١٩٦٦) كنتُ خلالها ألبس قناعين، وأتكلم بصوتين، وأظهر في الحفلات الرسمية شاحباً، كتمثال من الشمع في متحف (مدام توسُّو)..

انفصل التوأم السيامي عن بعضه.. وذهب طفل الشعر جنوباً.. وذهب طفل الدبلوماسية شمالاً..

وربما كان من حسن حظي، أن جهاز المناعة الشعرية عندي لم يفقد مناعته حتى آخر لحظة..

ولم تستطع فايروسات الوظيفة أن تفترس كريّات الشعر الحمراء.

٣٦

بيروت كرّسَتْني شاعراً.. وعمَّدتني بسماء بحرها الأزرق.. وأعطتني (دكتوراه) في الشعر لا تزال معلقة في غرفة مكتبي في لندن.

بيروت أعطت أيضاً شهادات الدكتوراه في الشعر لشعراء عرب طليعيين، كأدونيس، وبدر شاكر السياب، ومحود درويش، وأطلقتهم كالشُّهُب في سماوات الوطن العربي.

كانت عادلة في اختيارها.. وعادلة في قراراتها.. وعادلة في تقييم الشعر بصرف النظر عن هوية الشاعر، وانتماءاته، واتجاهاته السياسية والأيديولوجية.

أي أن بيروت كانت مع الشعر.. قبل أن تكون مع الشعراء.. وكانت متحررة من العصبية، والقبلية، والشوفينية، والطائفية..

فاللبناني، حين يقرأ الشعر، ينسى طائفته!!.

٣٧

على صخور الجبال اللبنانية أقمتُ مجدي الشعري.

ومن أرز لبنان وسنديانه وصنوبره، صنعتُ مراكب على طريقة الفينيقيين، أوصلتني إلى حدود الشمس، وتخوم المستحيل..

لبنان أعطاني خرائط الشعر، وقدّم لي زوَّادة من المعرفة والثقافة والحضارة، لا أزال آكل منها حتى اليوم.

نحـن جميعـاً عـصافير أكلـت القمـح مـن سـهل البقـاع، واللـوز الأخضر من وديانه.. وتعلمت أبجدية الحرية على يديه..

٣٨

تفرّغت في بيروت للشعر وحده.. ولم أُشرك به أحداً..

كنت أتنفس شـعراً.. وأتكلـم شـعراً.. وأنـام شـعراً.. وأسـتيقظ شعراً.. وأشرب قهوتي ممزوجة بالشعر.. وحب الهال..

كنت أتمشى صباحاً علـى كـرونيش البحـر، فيملـؤني الإحـساس بأنني قصيدة تمشي على قدميها..

ولا أتذكر مرحلة في حياتي تماهيتُ بها مع الشعر، كهـذه المرحلـة اللبنانية، الزاهية الممتدة مـن منتـصف الأربعينيـات، حتـى منتـصف السبعينيات..

كانت بيروت في أحسن حالاتها شباباً، ونضارة، وحضارة..

وكنّا في أحسن أيامنا اشتعالاً، وعطاءً، وإحساساً بالحرية..

ولقد أعطتني بيروت خلال عشرين عاماً كل المواد الأوليـة التـي يحتاج إليها شاعرٌ ليكتب اسمه على جدران الوطن العربي، بالحروف الكبيرة.

فمن جنيف، ومن مدريد، ومـن لنـدن كنـتُ كلـما شـعرت ببـرد المنفـى وقـشعريرته.. أحجـز مكانـاً علـى أول طـائرة مـسافرة إلـى بيروت.. لأسترجع حرارة الشعر.. وحرارة القلب..

كنـتُ أذهـب إلـى بيـروت، لأُدوزن صـوتي.. وأدوزن كلـماتي.. وأطمئن علـى القـصائد التـي تركتهـا نائمـة تحـت أشـجار الجامعـة

الأمريكية وفي أحضان النساء اللبنانيات اللواتي كن يتكحلن بالـشعر، ويتزنّرن كل يوم بقصيدة حب جديدة..

كنتُ أذهبً إلى بيروت، لأحافظ على لياقتي الشعرية، وأتأكد بـأن الأمواج التي تتكسر على شطآن عين المريسة، والسان جورج، والـسان ميشيل، وصيدا، وصور، وطبرجة، وجونية، وطرابلس، لا تـزال تحفظ النوتة الموسيقية لـ(رسالة من تحت الماء).. و(قارئة الفنجان).

كنت أذهب إلى بيروت لأتبارك بصوت مقرئيها، ورنين أجـراس كنائسها، وبياض أشرعتها، وشباك صـياديها، وطمـوح عـصافيرها، وزحمـة سـياراتها. وليبراليـة مقاهيهـا، وتعـدد منابرهـا، وشـجاعة جرائدها.. وجنون صحافييها..

وأخيراً.. كنت أذهب إلى بيروت لأتأكد مـن أننـي لا أزال قـادراً على الكتابة.. وقادراً على العشق.. وقادراً على السفر إلى أي مكان.. دون أن يكون معي تأشيرة دخول لأي مكان..

٣٩

أهمُّ ما في تكوين بيروت أنها تجمـع في جـسدها الأنوثـة والأمومـة معاً.. فهي أم عظيمة، وحبيبة رائعة في الوقت ذاته.

وهذا نادر في معجم البلدان. فباريس مثلاً يمكن أن تكون عـشيقة مدهشة، ولكنها لا تستطيع أن تكون أُمًّا مدهشة..

أما نيويورك فلا يمكنها أن تكون أُمًّا.. ولا أن تكون عشيقة!!.

٤٠

بيروت ليست طارئة على خارطة الشعر.. أو مضافة إليه. إنها الشعر.

إنها على خارجة المنطقة العربية تشبه طاووساً رأسه فوق جبال صنين.. وذيله مبلل بمياه البحر الأبيض المتوسط.

٤١

بيروت هي حالة شعرية لا تتكرر بسهولة.. وقصيدة لا يمكن إعادة كتابتها.

لذلك من السذاجة أن يسأل سائلٌ: متى تعود بيروت؟

وإذا كان بالإمكان إعادة الحجر، والحديد، والألومنيوم، والجسور، والرافعات، والأتوستر ادات، والفنادق.. فإن استعادة بيروت الشاعرة مهمة مستحيلة..

فالأشياء الجميلة جداً.. لا عمر لها.. كما الشباب، والجمال، والأنوثة، والشروق والغروب، والربيع، وقوس قزح.

فكما بابل، وروما، وأثينا، وفلورنسة، وغرناطة، وقرطبة، اشتعلت كشُمُوسٍ عظيمة في تاريخ الحضارات، ثم انطفأ وهجُها..

فإن بيروت التي كسرت الحرب الأهلية عظامها، وأحرقت غطاء عرسها، وشوّهت وجهها الجميل، وجسدها المعجون بالبرونز والذهب والكاكاو..

بيروت المليحة، الذكية، المثقفة، المبدعة، الحرة حتى الجنون.. هل من الممكن أن تخرج إلينا من تحت الأمواج كحورية البحر؟..

يؤسفني أن زمن الحوريات قد انتهى..

وجاء عصر السِيرلانكيَّات!!..

* * *

الجزء السادس

٤٢

في بيروت قررتُ أن أكون شاعراً.

ولكن هل يكفي هذا القرار الرومانسي لأقف على أقدامي في مدينة شاطرة جدّاً.. وتاجرة جدّاً.. ووفية جدّاً لإرثها الفينيقي؟

فكرت أن أؤسس دار نشر لا تنشر سوى إنتاجي الشعري، وسميتها (منشورات نزار قباني)، فاعترض كثيرون على التسمية، واعتبروها جزءاً لا يتجزأ من غروري.. ونرجسيتي..

لم أسمع النصيحة كعادتي لأن أصحاب شركات فورد، وبيجو، ورينو، فيراري للسيارات، ماركات شانيل، وغيرلان، ونينا ريتشي للعطور، ومحلات الصمدي، والبحصلي، وجروبي للحلويات، ومصانع الشوربجي للغزل والنسيج، تحمل أسماء أصحابها و(ما في حدا أحسن من حدا..).

وبدأت مرحلة التنفيذ، واستأجرتُ مكتباً صغيراً من غرفتين في شارع المعرض في قلب بيروت التجاري، وحيث يتجمع أهم الناشرين اللبنانيين.

في البداية رحب الناشرون اللبنانيون بزمالتي، وتعاملوا معي بكل حب واحترام، وزاروني في مكتبي الجديد، ودعوني إلى منازلهم، وصار بيني وبينهم خبز وملح.

ولكن مرحلة شهر العسل مع بعضهم لم تدم طويلاً، فحين ازدادت شعبيتي، وازداد انتشار كتبي وتوزيعها، وازداد شحمي

ولحمي.. أكلوا لحمي.. وزوروا كتبي..

والذين يسمعون عن عبقرية بيروت في نشر الكتاب العربي، وقدرتها الخارقة على تصنيع الكتاب، وإطلاقه، والتعريف به، ربما لا يعرفون أن عالم النشر في بيروت، أشبه بالمجاهل الإفريقية.. حيث الناشر يأكل الناشر.. والزميل يفترس زميله.. وأصحاب دكاكين الثقافة.. يسرقون أعمال المثقفين.. وجاكيتاتهم، وقمصانهم، وسراويلهم أيضاً..

٤٣

وإذا استثنينا عشرة بالمئة من الناشرين اللبنانيين، ممن يتحلون بالشرف والثقافة والقيم العالية، فإن التسعين بالمئة الباقية منهم.. جزارون محترفون يتعاطون مع الكتاب كما يتعاطى جزار وثنيّ مع قطيع من الأغنام.. دون أن يراعي في عملية الذبح أحكام الشريعة الإسلامية.. أو أية شريعة أخرى..

هؤلاء الناشرون ليس لهم جذور ثقافية أو اجتماعية.. فقد بدأوا المهنة بائعي جرائد على أرصفة بيروت.. ثم انتقلوا من أسفل القفة إلى غطائها، فأصبح لهم مكاتب مكيفة الهواء.. وسكرتيرات.. وفاكسات.. وصاروا يدخنون السيجار الكوبي كما يفعل اللوردات الإنكليز..

وإذا كان مطلوباً من الناشر أن يكون لديه حد أدنى من الثقافة التي تسمح له بقراءة وتقييم المخطوطات التي تصل إليه، فإن هؤلاء الناشرين أميون بالوراثة، ولا يعرفون إذا كان الكتاب يُقرأ من اليمين.. أم يقرأ من اليسار؟؟

إنهم مجموعة من الضياع، تأكل كل ما في طريقها من كتب، وورق، وكرتون، ومطابع، وأدباء.. وشعراء.. وروائيين.. وحقوق تأليف!!.

إن شهية هؤلاء لا حدود لها.. وهم لا يوقرون الأموات ولا الأحياء.. بدءاً من كتاب الأغاني، والعقد الفريد، وصبح الأعشى، ونهج البلاغة.. حتى روايات نجيب محفوظ، وأعمال طه حسين.. وتوفيق الحكيم.. والعقاد.

وهم يسطون على كل شيء.. ابتداءً من المصاحف الكريمة.. حتى كتب الطبخ.. والجنس.. والجريمة..

إلى هذه الغابة المتوحشة دخلتُ عام ١٩٦٦.

ولا تزال عضات الأفاعي، والعقارب، وأسماك القرش، مرسومة على كل زاوية من وزايا جسدي..

٤٤

وحتى أكون منصفاً، أود أن أقول إن سيف التزوير لم يطلني وحدي، بل طال أي مؤلف رائج، وأي كتاب يبيع أكثر من ثلاثمئة نسخة.

وليس هناك ميثاق شرف بين الناشرين اللبنانيين والناشرين العرب يمنعهم من تزوير كتب بعضهم.. فكل الأعمال الأدبية مستباحة، ومهدور دمها.. على امتداد الخارطة العربية.. فالكتاب المصري مأكول، والكتاب السوري مأكول، والكتاب العراقي مأكول، والكتاب الفلسطيني مأكول. وكم حاولتْ جامعة الدول العربية، والهيئة العامة للكتاب في القاهرة، أن توقف هذه المذبحة الدامية،

ولكنها فشلت في نزع سلاح المتقاتلين.. كأنما (داحس والغبراء) الثقافية.. قدر مكتوب على جبين العرب..

ولا أكون مبالغاً إذا قلت إن سلطة المزورين كانت ولا تزال أقوى من كل السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية.. بل هي أقوى من سلطة (الإنتربول).. ومحكمة العدل الدولية..

إنهم كالمافيات في جزيرة صقلية الإيطالية، لهم جيشهم، ورئاسة أركانهم، وقواتهم المسلحة.. وهم لا يتورعون عن قتل رجال الشرطة، والقضاة، والمحامين الذين يلاحقونهم.

٤٥

وربما كانت المرة الوحيدة التي انتصر فيها كاتب عربي على مزوري كتبه، هي المرة التي تدخلت فيها قوات الردع السورية عام ١٩٧٦، بناء على شكوى رسمية تقدمتُ بها إلى قيادات قوات الردع لترفع عني سيف ميلشيات التزوير، باعتبار أن (الأمن الثقافي) لا ينفصل عن الأمن العسكري، الذي أخذت قوات الردع السورية على عاتقها تثبيته في بدايات الحرب الأهلية.

لقد اعتبر الإخوة السوريون آنئذ أن العدوان على كتبي، هو عدوان على تراث ثقافي عربي - سوري، فتحركوا فوراً لإنقاذ أعمالي الشعرية من مخالب المزورين، وحاصروا أوكارهم، ومطابعهم، ومستودعاتهم، وصادروا أهرامات من الكتب المزورة، وأرغموا الفاعلين على دفع جميع حقوق التأليف المسروقة.

هذه حادثة من حوادث الردع الثقافي، لا بدّ لي من ذكرها في هذه

السيرة الذاتية، كنموذج لسلطة تدافع عن ثقافتها ومثقفيها..

ويا ليت الدول العربية الأخرى، التي تسللت إليها جرثومة التزوير حتى وصلت إلى كراسي المسئولين عن شؤون الثقافة والإعلام، تقتدي بهذا الموقف السوري الحضاري الكبير وتتحرك لحماية آلاف المبدعين العرب، من أسنان أسماك القرش التي لم تجد حتى من يردعها، ويقتلع أسنانها المتوحشة..

إن السلطة الحقيقية هي التي تدافع عن مثقفيها..

لا تلك التي تبيعهم في المزاد العلني..

هي السلطة التي تضع الكتاب في قائمة الكتب المقدسة.. لا في صناديق النفايات!!..

٤٦

بدأتُ في بيروت (على الحصيرة).. كما يقول المثل الشعبي.

لم يكن في المكتب الذي استأجرته، سوى طاولة، وكرسيين، وتليفون، ولوحة زيتية لرسام إسباني تمثل خيولاً تركض في البرية..

كان منظر الخيول الراكضة أمامي، يثير حماسي، وطموحي، ويعلمني نشيد الحرية.. وكبرياء الصهيل..

ورغم بساطة المكتب وتواضعه، فقد كنتُ أشعر أنني كسرى أنوشروان، أو هانيبعل، أو يوليوس قيصر..

كنت أشعر، وأنا أرتشف قهوتي كل صباح، أنني ملك الملوك.. وأن كل شيء ما عدا الشعر.. هو باطل الأباطيل..

٤٧

حوار مع عمر أبو ريشة

كنت جالساً ذات صباح في مكتبي، حيث دخل علي الشاعر السفير عمر أبو ريشة، وبعد عناق حميم، تأمل محتويات المكتب باستغراب، وعدم رضا.. وقال:

- ماذا فعلتَ بنفسك يا نزار؟.. هل تركت كل أمجاد السفارات، وإمبراطورية السلك الدبلوماسي، وثريات الكريستال، وسجاد الغوبلان، والأوبوسون، لتقعد في هذا المكتب الأصغر من خُرْم إبرة؟؟

وقَعتْ عليَّ كلمات عمر كالصاعقة، فقلت له بنبرة حادة:

- عن أي أمجاد تتحدث يا عمر؟؟..

- إن مجدي الحقيقي هو الشعر.. كما هو مجدك أيها الشاعر الكبير.. لقد كنت أنتظر منك يا صديقي، أن تطلب مني أن أضع لك كرسياً ثانياً خلف المكتب الذي أجلس عليه..

على كل إذا قررت ذات يوم أن تخلع أقنعة الشمع.. وترمي بذلة السِّموكن، والفراك، والقمصان السوداء، والقبعة العالية.. في الزبالة.. وتختار الشعر.. فإن هذا المكتب يتسع لكلينا.. وأهلاً بك.. في أية لحظة..

نظر إليَّ عمر بعينين يغسلهما القلق والدهشة، وقال وهو يودعني:

- شكراً على دعوتك.. ولكنني لا أعتقد أنني سأختار يوماً هذا المصير المجنون!!

.. وخرج عمر أبو ريشة بقامته المديدة كقامة الرمح من مكتبي، ولم نلتق مرة أخرى.. لأن دروبنا قد تباعدت.. وأحلامنا قد تباعدت..

هو كان على موعد مع الرئيس نهرو في دلهي.. لتقديم أوراق اعتماده سفيراً فوق العادة..

وأنا كنتُ على موعد مع عمال مطبعة (دار الكتب) في بناية العازارية لتصحيح مسودات مجموعتي الشعرية الجديدة (الرسمُ بالكلمات).

❊ ❊ ❊

الجزء السابع

٤٩

بديوان (الرسم بالكلمات) دخلتُ مغامرة النشر في بيروت.

كان الديوان يحمل نكهةً إسبانية حارقة..

فقد كتبت هذا الديوان خلال إقامتي في إسبانيا، وكانت كلماته مشتعلة ومتوترة كلعبة مصارعة الثيران الإسبانية بكل ما فيها من عنف، وقسوة، ودماء، ورمال.. وكمشهد الراقصة الإسبانية وهي تضرب الأرض بكعب حذائها، فيتطاير الشرر الأحمر ليُحرق الصالة والمشاهدين..

وكان فيه أيضاً إيقاعات أوبرا (كارمن) للموسيقار بيزيه بكل دراماتيكيتها وتطرفها وروحها الغجرية..

ولأن بعض قصائد الديوان كانت معجونةً بالشطة الحمراء..

وتوابل الجنوب الإسباني، وشراسة الثيران المقاتلة، فقد أثار لدى صدوره ضجة نقدية عنيفة، وقرع أجراس الفضيحة الشعرية.. ولا سيما القصيدة الأولى في الكتاب الذي حملت اسمه، واستحلها نقاد السوق السوداء ليؤكدوا ساديّتي ونظرتي الجاهلية إلى المرأة.. باعتبارها شيئاً من الأشياء، ودمية من الخزف أتسلى بها لبعض الوقت.. ثم أكسرها..

«فصَّلتُ من جلد النساء عباءة   وبنيت أهراماً من الحلمات»

هذا البيت من القصيدة، أصبح وثيقة جنائية في ملفي الأدبي والاجتماعي، يستعملها أنصاف النقاد وأنصاف الصحافيين للتشهير بي، فما أن أدخل إلى مكان عام، حتى يشيروا إلي قائلين: (هذا الذي فصل من جلد النساء عباءة..)، وما أن أجلس في أي مقهى، حتى تترد الأغنية نفسها.

وبما أنه لا يصح في النهاية سوى الصحيح، فقد خسر الانكشاريون وبائعو النقد المتجولون قضيتهم.. ونفد ديوان (الرسم بالكلمات) من الأسواق خلال أيام معدودات.

٥٠

قصيدة (الرسم بالكلمات) من أجمل قصائدي صياغة، وأكثرها جرأة واقتحاماً. بل هي قصيدة أخلاقية، ولم يكن الجنس فيها سوى قناع خارجي للتشويق.

إنها وحدة إبداعية لا تتجزأ على طريقة (لا تقربوا الصلاة..) بل

تُقرأ كعمل درامي بكل فصوله ومواقفه.

إنها مسرحية بثلاثة فصول تتداخل مع بعضها تداخلاً عضويّاً ولغويّاً وشعريّاً. أما المتفرجون الذين شاهدوا الفصل الأول من المسرحية، وذهبوا إلى المقهى ليمارسوا الثرثرة والنقد العشوائي، فإنهم بشهادتهم أشبه (بالشاهد اللي ما شفش حاجة..).

إنني لا أريد هنا أن أنفي شيئاً.. أو أن أثبت شيئاً.. فليس من مهمة الشاعر أن يلبس ثوب المحامين، للدفاع عن قصيدته. فالقصيدة تعرف دائماً كيف تدافع عن نفسها..

وخلاصة القول، إن كل قصيدة يكتبها شاعر، يمكن استعمالها ضده.. وضد الشعر.. وضد الحقيقة..

إن الناقد المتطفل على المهنة، كالصيدلي الدجال الذي يُركِّب الدواء دون أن يعرف شيئاً في علم الكيمياء وطبيعة وخصائص المواد التي يستعملها، فينسف المختبر.. ويقتل مرضاه.. ويقتل نفسه..

وكم في مختبرات النقد العربي من كُتّاب بالسخرة.. أو بالقطعة.. لا يحملون شهادة أو ترخيصاً بمزاولة العمل، حوّلوا مهنة النقد إلى مهنة تُشبه مهنة حفاري القبور!!.

٥١

حادثة حب على الثلج

كل يوم في لبنان كان يحمل لي مفاجأة جديدة، فيها كثير من دهشة الحلم، وألوان الفانتازيا.

فبالإضافة إلى حادثة العشق الأول التي جرت لي على مرفأ

بيروت في ربيع عام ١٩٦٦، وكان أبطالها رجال الجمارك اللبنانيين.

تعرضتُ لحادثة عشق أشد إثارة، وأكثر دراماتيكية فوق ثلوج (ضهر البيدر) خلال فصل الشتاء من العام ذاته، وتشبه في فصولها أحداث المسرح الإغريقي، ومسرحيات شكسبير.

ففي يوم عاصف من أيام كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦ ركبت سيارتي الصغيرة، وانطلقت باتجاه دمشق لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع أهلي.

كان الثلج في ضاحية (عالية) و(بحمدون) و(صوفر) يهطل بشكل خفيف ومعقول. فواصلتُ السير على أمل انحسار العاصفة.

ولكن ما إن تجاوزت منطقة (المديرج) صعوداً إلى قمة (ضهر البيدر)، حتى ازدادت العاصفة قوة، وبدأ الثلج الكثيف يغطي سقف السيارة، ونوافذها الأمامية والجانبية، والطريق الجبلية الصاعدة، حتى أصبحت عجلات السيارة تدور على نفسها. وتسمَّرت السيارة في مكانها..

كانت الثلوج تزداد كثافة، والسيارة تختفي تحت الثلج تدريجيّاً، وأنا جالسٌ في مقعد القيادة لا أرى من حولي شيئاً.. سوى الموت القادم بردائه الأبيض.. ولا أسمع سوى ضربات قلبي.. وارتعاشات جسدي الذي بدأ يتجمد..

بدأت أقرأ آيات من القرآن الكريم بصوت مرتجف، وأدعو الله أن يكون معي، ويلطف بي، ويخرجني من تحت هذا الكفن الأبيض..

ولم أكد أنتهي من ضراعتي، حتى سمعتُ ضرباً شديداً على

سقف السيارة..

فتحتُ النافذة، فإذا بي أمام دركي لبناني يوجه مصباح بطاريته إلى وجهي. ويصرخ بدهشة ظاهرة، وأفراد الدورية من حوله:

– لا أصدق.. لا أصدق.. هذا الأستاذ نزار قباني.. تحاصره الثلوج.. يا الله.. يا الله.. ماذا فعلت بنفسك يا أستاذ؟ وكيف صعدت الجبل في عز العاصفة؟.. ألم يخبروك في مخفر الدرك بالمديرج بأن طريق (ضهر البيدر) مقطوعة..

والتفتَ إلى رفاقه الثلاثة في الدورية وهو يردد: لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

– أستاذ نزار: ليس هناك وقت للكلام.. افعلْ ما نطلبه منك.. ابق خلف المقعود، واحلل فرامل اليد.. ونحن سنقوم بدفعك إلى (ضهر البيدر)..

أجبت: حرام عليكم يا إخوان.. فالمسافة إلى ضهر البيدر تبلغ عدة كيلو مترات.. والعاصفة على أشدها.. والرؤية متعذرة.. فكيف يمكنكم سحبي إلى القمة؟..

أجابني رئيس الدورية بصوت حاسم وآمرْ:

– لا تضيع الوقت يا أستاذ نزار، فالموقف خطير، ولا يمكننا أن نتركك وحدك.. لأن الثلوج ستدفنك بعد ساعات.. ونحن مسئولون عن حياتك، لأن حياتك ليست ملكك وحدك.. ولكنها ملك الملايين من العرب واللبنانيين الذين كتبتَ لهم أجمل الشعر، وكنتَ صوت وجدانهم..



فكيف نتركك تموت.. أنت الذي أعطيتنا بشعرك أمل الحياة؟؟
هذه أوامر الشعب اللبناني، يا أستاذ، فأطِع الأوامر.

٥٢

.. وأخذ رجال الدورية الأربعة يدفعون سيارتي، وأنا في داخلها أشعر بعذاب النفس، ووجع الضمير.. حتى رأيتُ بعد ما يقارب الساعة أضواء مخفر (ضهر البيدر) تتلألأ.. ورأيتُ الضابط المسئول عن المخفر يتقدم نحو رجال الدورية الذين يجرون السيارة قائلاً:

- شو القصة يا شباب؟ ظننتُ أن العاصفة قد ابتلعتكم.. من معكم في هذه السيارة؟؟

فتقدم منه رئيس الدورية، والتعب والكبرياء تقطران من عينيه، وقال له بعد أخذ التحية العسكرية:

- يا سيدي الرئيس: صحيح أننا تأخرنا.. ولكننا حملنا لك معنا أجمل هدية.. إنه الشاعر نزار قباني..

تقدم مني رئيس المخفر، وأخذني بالأحضان.. قائلاً:

- مش معقول.. مش معقول.. كم أنا فخور أن رجال الدرك اللبنانيين أنقذوا تاريخاً من الشعر كاد يذوب تحت الثلج..

تفضل، يا أستاذي، لنشرب الشاي معاً، وتستريح من عناء رحلتك السندبادية..

والتفتَ إلى رجاله قائلاً:

- شكراً يا شباب على بطولتكم.. وابتداءً من الغد سوف أصدر التعليمات بترقيتكم.. وزيادة مرتباتكم..

لأنكم جمعتم بين حماية الأمن.. وحماية الثقافة..

٥٣

بعد أن شربتُ الشاي، واسترحتُ قليلاً لدى رئيس مخفر (ضهر البيدر). طلب من أحد معاونيه أن يرافقني إلى مدينة شتورة حيث طريق الشام آمنة.. ومفتوحة..

ودعتُهُ.. وودعت رجاله الشجعان الذين وهبوني عمراً جديداً.. وواصلت طريقي إلى دمشق، وفي طريقي إليها كانت دموع صامتة تترقرق من عيني، وكنتُ أسأل نفسي:

أي مصير كان ينتظرني يا ترى لو لم أكن على أرض لبنانية؟ ولم أقع مصادفة بين أيدي درك لبنانيين مثقفين.. يقرأون الشعر، ويحفظونه.. ويرضعونه مع حليب أمهاتهم؟؟..

ماذا كان مصيري يا ترى، لو وقع الحادث على جبال الألب.. أو البيرنيه.. أو على المرتفعات السويسرية أو السكوتلاندية؟..

أكيد أنهم في محضر التحقيق.. سوف يسجلون رقم سيارتي.. وجواز سفري.. ومحتويات حقيبتي..

ولكنهم لن يعرفوا تاريخي الشعري.. ولن ينقذوني من حصار الموت الأبيض.. كما فعل اللبنانيون!!.

* * *

الجزء الثامن

٥٤

كانت بيروت في مرحلة ما قبل الحرب الأهلية، سيدة المدائن، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

كانت الكتابة فيها فرحاً لا حدود له، وعُرساً يوميّاً يشارك فيه البحر، والجبل، ورائحة الصنوبر، ورفيف القلوع البحرية على شاطئ فندق (السان جورج).

في تلك المرحلة البيروتية الاستثنائية من عمر لبنان، وعمر المنطقة العربية، كنت أكتب بسرعة عصفور.. وأطير على أوراقي البيضاء برشاقة سمكة.

ولا أتذكر زمناً تبللتُ فيه بأمطار الشعر، وأصبحتْ أصابعي غابات من الورق الأخضر.. كهذا الزمن البيروتي الخرافي..

٥٥

لم أكن أُعاني من أية مشكلة..

فقد كانت مساحة الحرية في لبنان أكبر من مساحة أوراقنا.. ودفاترنا.. وأكبر من مساحة أحلامنا وتوقعاتنا.

كانت السماء تمطر.. والأصابع تمطر.. والقلب يمطر..

كنا نكتب على زرقة البحر، فيلتقط قصائدنا الصيادون على شواطئ جزيرة قبرص.

وكنا نغني في زحْلة فيزداد محصول العنب..

ونكتب على ثلج صِنّين فيشتعل الثلج بنار الشعر..

وكنا نرمي قصائد الحب إلى سمك (السلطان إبراهيم) فيقرر السكنى في لبنان، ويطلبُ الحصول على الجنسية اللبنانية.

٥٦

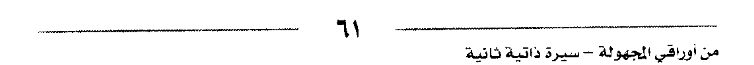
ولأن بيروت كانت أكبر من الحرية نفسها.. تفجرت..

ولأنها أسرفت في عرض جمالها، وأنوثتها، وتقاطيع جسدها الجميل، في منطقة تحكمها الذكورة، والشبق الجنسي، والعادات الجاهلية، والحرمان الثقافي.. دَلَقُوا عليها البنزين، وأحرقوها حيَّة..

لقد كانت الجميلات عبر التاريخ يدفعن دائماً ضريبة جمالهن.. فيقدمن قرابين للنيل في مصر القديمة.. ويُدفنَّ مع أزواجهن في ضريح واحد في الهند، ويوأدن تحت التراب في العصر الجاهلي إرضاء للات والعزى.

وبيروت هي الموؤودة، والمحروقة، والمذبوحة، والمغتصبة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.. لأن جسدها البرونزي الجميل كان تحدياً يومياً لثيران المنطقة الهائجين!!.

٥٧



إذنْ فبيروت الخمسينيات والستينيات، كانت (دينامو) الشعر، والنثر، والصحافة، والنشر، والفنون التشكيلية، والمسرح، والإبداع بكل صوره.

وفي هذه الورشة الثقافية الشهيرة كمصانع (بوينغ) و(دوغلاس) و(داسُّو) تدربنا نحن الشعراء العرب على حرية الطيران، وتعلمنا أصول الصنعة.

وحين أنهينا فترة تدريبنا على طائرات الكونكورد اللبنانية، صار صعباً علينا أن نركب الطائرات الشراعية، أو الهيليكوبتر، أو طائرات الدول الاشتراكية من نوع أنطوفوف، وتوبولوف، مع الاعتذار من الموسيقار العظيم رحمانينوف.. والروائي تشيكوف، وشاعر داغستان الكبير رسول حمزاتوف..

٥٨

إن مشكلتنا مع الحرية اللبنانية أنها حرية ذات (ماركة مسجلة) غير قابلة للتقليد، مثل كونياك نابليون الفرنسي، والسجاد الإيراني، والويسكي السكوتلندي، والسيجار الكوبي، والكريستال التشيكوسلوفاكي..

فلما ذهبنا لنشتغل في ورشات أخرى، ومصانع جديدة، أُصبنا بالإحباط، وشعرنا أن أكثر منتجات الحرية في العالم هي من نوع الخردة Second Hand.

كما اكتشفنا أن الحريات في بلاد العالم الثالث هي مجرد براويز فارغة.. تتغير كل خمس دقائق..

٥٩

هذه هي مشكلتي، ومشكلة كل الكُتّاب والشعراء العرب، الذي أخذتهم بيروت في أحضانها، وأطعمتهم المن والسلوى، وعودتهم على أكل (مازات) الحرية.. بكل مذاقاتها، وأطباقها الخرافية.

إذن فالحق كله يقع على بيروت..

لأنها لم تفرض علينا (ريجيماً) ثقافيّاً قاسياً.. ولم تمنعنا من التهام

صحون التبولة.. ومناقيش الزعتر.. وعرائس اللبنة.. والكبة النيئة..
ومن قرقشة أصابع حبيباتنا مع اللوز الأخضر..

٦٠

يعد هذا الدلع المفرط.. والدلال الذي لا حدود له.. لم نعد نعرف أي طعام نأكل.. وأي نبيذ نشرب.. وأي فندق نبيت فيه ليلتنا.. وأي منفى يشرب بقية أعمارنا..

بعد بيروت أغلقت كل المطاعم الثقافية أبوابها..
ولم يبق في العالم سوى مطعميْ (ماكدونالد) و(كانتاكي شيكن).
فإما أن تأكل على الطريقة الأمريكية..
وإما أن تموت جوعاً..

٦١

هذا التركيز على بيروت الثقافية، لا يعني أن بقية المدن اللبنانية كانت أقل ثقافة.. أو أقل عشقاً للشعر..

فلقد عرفتُ لبنان الشاعرَ شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وزرعتُ في كل قرية لبنانية شتلة شعر.. أو شتلة حب..

تنقلت على الخريطة اللبنانية كلها، كما تتنقل العصافير فلم يعترضني حاجز طائفي، أو حاجز حزبي.. أو حاجز عسكري..

كان لبنان كله يسمعني. ويحضني، ويحتشد لحضور أمسياتي الشعرية، دون أن يسال عن ديانتي، أو مذهبي، أو عقيدتي، أو انتمائي الفكري، أو هويتي..

هذا هو لبنان الحقيقي الذي عرفته، والذي كان في ثقافته أكبر من

كل الطوائف، والملل والنحل، والأحزاب، والأيديولوجيات..

٦٢

حتى في أيام الرعب والقنص، والقتل على الهوية..

كنت أعبر الحواجز بين المنطقتين الغربية والشرقية.. دون أن يعترضني أي معترض.. ودون أن أقدم هويتي للمقاتلين على الجانبين من خطوط التماس.

فقد كان الشعر هويتي التي يعترف بها كل المتحاربين.. وكانت مجموعاتي الشعرية موجودة خلف أكياس الرمل.. وبين البنادق، والخراطيش، والمعاطف الكاكية..

٦٣

ماذا يعني هذا الكلام؟

إنه يعني بكل وضوح أن لبنان الحقيقي هو لبنان الذي يقرأ الشعر.. لا لبنان الذي يحمل الكالشينكوف!!.

كما يعني أن الشعب اللبناني ليس بطبيعته شعباً مقاتلاً بالفطرة.. كالهيكسوس، والفايكينغ، والجرمن، والمغول، والتتار، والأتراك.

إنه شعب جبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي، وميخائيل نعيمة، وخليل مطران، والياس أبي شبكة، وبشارة الخوري، وأمين نخلة، وشحرور الوادي.. وسعيد عقل، وعاصي الرحباني.

شعب مصنوع من بحة الناي، وضوء القمر، وكبرياء المواويل، وعنفوان الدبكة.. لا من أسلحة الميليشيات.. وبنادق القناصين..

٦٤

الإنسان اللبناني ذو تلوين مائي.. وليس إنساناً (كاكيّاً) أو دمويّـاً.. أو عدوانيّاً..

والفينيقيون، أجداد اللبنانيين، فتحوا العـالم بأسـاطيلهم البحريـة، ولم يكونـوا يحملـون علـى مـراكبهم خرطوشـة واحـدة.. أو سـكين مطبخ..

كانوا يحملون معهم حريراً من الزوق.. وكرزاً من البقـاع، ودراقـاً من بكفيا.. وخشباً من ضهور الشوير، وبقـلاوة مـن صـيدا.. وعرقـاً زحلاوياً.. وحروفاً أبجدية من جبيل.. وقناني ماء زهر من طرابلس..

٦٥

فالحرب إذن ليست طبيعة لبنانية وراثية، وإنما هي (طبيعـة ثانيـة) اكتـسبها اللبنـانيون بالممارسـة والتجريـب وتبـريم الـشوارب.. والتنمير..

ولـو تـرك اللبنـانيون ليحلـوا مـشاكلهم، وينتزعـوا أشـواكهم بأيديهم.. لما استمرت الحـرب اللبنانيـة أكثـر مـن أسـبوع.. ولكـان بالإمكان تجنب الحرب.. على كأس عرق.. وطاولة زهـر.. ونرجيلـة من التبغ العجمي..

***

الجزء التاسع

٦٦

بين أوراقي اللبنانية التي أحتفظ بها أوراقٌ مثيرة للخيال والدهشة.

أوراق استثنائية لا أسمح لنفسي بحرقها ولا بتقطيعها. لأن إحراقها يعني إحراق نصف تاريخي.

ولقد فكرت في هذه الأوراق كثيراً، وتساءلتُ إذا كان نشرها يضيء أي مساحة من مساحات المعرفة، أو يقدم أية مادة لناقدي الأدب.

فثمة أحداثٌ جرت خلال الأمسيات الشعرية التي قدمتها في لبنان، تدخل في باب (صدق أو لا تصدق).. لأنها أقرب إلى عالم الفانتازيا والخرافات.. منها إلى عالم الواقع.

وبما أنني أعتقد أن أية حادثة تحدث لشاعر من الشعراء، يجب أن لا تُهمل، بل يجب أن تدرس سوسيولوجيّاً، ونقديّاً، وعلى أضواء علم النفس، فلقد قررتُ أن أستعمل شجاعتي، وأضع هذه التجارب بكل جنونها وغرابتها أمام عدسات الناقدين ودارسي الشعر، علها تؤدي إلى المزيد من الكشوف واستبطان التجربة الشعرية.

إن علاقة الجمهور بشاعره، قد تأخذ أشكالاً مرضية، وهيستيرية، ومتطرفة، لا يمكن لأحد أن يقمعها أو يسيطر عليها.

وأنا حين أسمح لنفسي بنشر هذه الأحداث السريالية بكل زخمها وحرارتها وانفجاراتها العصبية، فلأنني حريص على إضاءة كل الزوايا والوجوه على مسرح الشعر.

إنني بعملي هذا أتصرف مثل أي طفل يقول لأمه كل ما لديه من أسرار دون أي تحريف.. أو رتوش.. أو مونتاج..

فأرجو أن تثقوا بما أرويه لكم.. لأن الأطفال لا يكذبون..

التوقيع على دفاتر الأوتوغرافات ضريبة جميلة يسدد فيها الشعراء فواتير الحب التي يقدمها لهم القراء والمعجبون.

بعض هذه الفواتير معقولة، وسهل الدفع.

وبعضها مرهق، ومستحيل التسديد.

المؤلف الأوروبي لا يعاني أية مشكلة لدى توقيع كتابه الجديد، فهو يكتفي بالتوقيع على كتابه، دون إضافة أي عبارة عاطفية، أو تزويق رومانسي.

أما في الوطن العربي، فإن المعجبين يُمْلُون عليك النص الذي يريدونه. فإذا كان الفتى عاشقاً طلب منك أن تكتبَ اسم حبيبته، وعنوانها.. ورقم تليفونها.. وبيتين من الشعر يتغزلان بعينيها..

وإذا كانت الفتاة طالبة التوقيع واقعةً في بحر الهوى، طلبت إليك، أن تكتب لحبيبها، أن أمواج الحنين تتقاذفها.. (وأنها تتنفس تحت الماء..) وأنها بحاجة إلى ذراعية القويتين قبل (أن تغرق.. تغرق.. تغرق..).

وعبثاً أحاول أن أقنع حاملي الأوتوغرافات، أنني لست ساعي بريد، ولا قاضي غرام، ولكن كلماتي لم تكن تقنع أحداً.. لأنهم مقتنعون بمعجزات الشاعر وكراماته، وقدرته على تحويل التراب إلى ذهب، وفك المربوط.. وإعادة المحبوب إلى بيت الحب.. ليغني تحت شرفة الحبيبة: (ما أحلى الرجوع إليه..).

إنني أفهم جيداً هذه المطالب الإنسانية، وأتعاطف معها. كما أفهم

أن شعر الحب الذي كتبته على مدى خمسين عاماً، كرسني في خيال الشاب العربي، معلماً من معلمي الحب، وإماماً من أئمته، وفقيهاً من فقهائه..

لذلك أشعر في كثير من الأحيان بمسئوليتي عن تشكيل هذه الصورة فوق الواقعية للشاعر، وجعل الشعر أقرب إلى السحر، والتصوف، والكهانة.

لقد ورطتني أعمالي الشعرية في مواقف دراماتيكية لها أول وليس لها آخر.. بحيث صار من الصعب عليَّ، أن أتراجع، أو أن أرمي قصائدي إلى النار.. أو أغير اسمي..

٦٨

التوقيع الاستفزازي

الحادثة التي جرت لي في طرابلس عروسة الشمال اللبنانية عام ١٩٧٣ لا تشبه الحوادث، فهي أشبه بصاعقة ضربتني، وحولت أعصابي إلى أسلاك من الرماد، ودمي إلى سائل بنفسجي..

حادثة أفقدتني توازني خلال لحظات وأدخلتني في امتحان صعب، لا أعرف كيف أجيب على أسئلته.. كأن ذاكرتي توقفت نهائيّاً عن العمل.

فبعد الأمسية الشعرية الحاشدة التي قدمتُها بدعوة من نادي الجامعيين في الشمال، في حديقة الرابطة الثقافية في طرابلس، التف الجمهور الطرابلسي حولي طالباً التوقيع على مجموعاتي الشعرية أو

على دفاتر الأوتوغراف التي يحملونها..

وقد بدأ كل شيء هادئاً وطبيعيّاً، في هذه المدينة التي عرفت بتراثها الثقافي المحافظ، وعاداتها الشامية الأصيلة..

ثم جاء الزلزال على صورة سيدة مديدة القامة، سوداء العينين، بدوية الملامح، تقدمت من خلال الحشد الكبير إليَّ حيث كنت أجلس، وسألتني بصوت عميق وواثق من نفسه:

– هل تسمح بأن توقع لي؟

قلت: تكرمي.. هاتي أوتوغرافك..

قالت: ليس عندي أوتوغراف!

قلت: هاتي ورقة كلينكس..

قالت: لا أستعمل مناديل الكلينكس..

قلت: هاتي تذكرة هويتك..

قالت: ليس عندي تذكرة هوية..

قلت: هاتي ورقة من أوراق العملة اللبنانية..

قالت: ليس عندي فلوس..

قلت: إذن.. أين تريدينني أن أوقع؟؟

قالت: على فخذي.. إذا سمحت!!

ورفعت تنورتها على الأعلى، أمام جمع غفير من الناس، دون أن يرف لها جفن.. أو يرتجف لها عصب..

٦٩

تمالكتُ نفسي، وبلعتُ ريقي من هول المفاجأة التي أذهلتني، كما

أذهلت الناس الذين كانوا يملأون الحديقة.

كان لابد من اتخاذ قرار سريع لمواجهة هذا التحدي الكبير، وهذا الامتحان الذي أدخلتني فيه هذه السيدة الشجاعة والمجنونة..

فإما أن أوقع.. وأكسب المعركة..

وإما أن أرفض، فأخون تاريخي كشاعر، أعطي المرأة أجمل شعره على مدى خمسين عاماً..

٧٠

.. وقفتُ ذاهلاً أمام الأفق الحريري المفتوح أمامي..

وبدأت أحفر توقيعي على البرونز المشتعل، كنحات محترف يشتعل بإتقان على تمثال جميل، والناس من حولي ذاهلون أمام الحوار الذي يدور بين الشعر.. وبين البرونز..

٧١

انتهت حفلة التوقيع الخرافية..

وغابت (ساندريللا الطرابلسية) بين أشجار الحديقة، دون أن أعرف من هي.. وما هو اسمها.. وما هي مؤهلاتها الثقافية؟

كل ما أتذكر أنها سيدة جميلة، بدوية الملامح، وخارجة على القانون(*).

(*) هذه القصة مذكورة في كتاب (النرجسية في أدب نزار قباني) للدكتور خريستو نجم الذي قدمه كأطروحة لجامعة القديس يوسف (الجامعة اليسوعية) في بيروت.
الناشر: دار الرائد العربي- بيروت ص٣٨- ٣٩.

٧٢

أمسية شعرية.. في مستشفى للولادة

في أوائل السبعينيات، تمنى عليَّ أصدقاء من مثقفي الجنوب اللبناني إعطاء أمسية شعرية في مدينة (النبطية).

قلت: على الرحب والسعة.. فجبل عامل هو عاصمة الشعر ومنارتُه، ويسعدني أن أقول الشعر في عاصمة الشعر..

سألتهم: وكيف يكون برنامج الرحلة إلى عاصمة الجنوب؟

قالوا: تغادر بيروت نحو الساعة العاشرة صباحاً، ونطعمك سمكاً على شاطئ (الخيرزان).. وبعد الظهر سننطلق إلى النبطية حيث ستكون أمسيتك في الساعة الخامسة في سينما النبطية..

سألتهم ضاحكاً: أمسية شعرية.. في سينما؟..

أجابوا على استحياء: ليس لدينا خيار آخر. فلا مكان في النبطية يتسع لجمهورك الذي سيأتي من كل قرى الجنوب سوى قاعة السينما.. فأرجو أن تسامحنا..

قلت: لا يهمكم.. أنا موافق..

٧٢

وانطلقنا ذات نهار ربيعي جميل إلى ضاحية (الخيرزان) البحرية، حيث استمتعت ببحر لاشبيه لزرقته.. وبسمك يتلألأ كسبائك الفضة في شباك الصيادين.. وبعاطفة جنوبية لا مثيل لعفويتها وصدقها.. وحرارتها..

ثم واصلنا الطريق إلى النبطية.

٧٤

وعندما وصلنا إلى دار السينما، كان المشهد أشبه بيوم القيامة. فقد تداخلت حدود البلدة مع حدود السينما، فصارت السينما والنبطية شيئاً واحداً.. وضاع الأولاد عن أمهاتهم.. والأزواج عن زوجاتهم.. والمعلمون عن تلاميذهم.. والأطباء عن مرضاهم.. ورجال الشرطة عن مخافرهم..

وعندما وقفت على المنبر، ورأيتُ النبطية كلها تنام في كفي، شعرت برعشة أبوة لم أشعر بها في أية أمسية أعطيتها في حياتي..

لم يكن هناك وجاهات وامتيازات طبقية لأحد.. ولم يكن هناك مراسم وطقوس ملكية للجلوس.. فالشعر ملك ديمقراطي يجلس مع رعيته على الأرض..

النساء الجنوبيات كُنَّ يشغلن الصفوف الأولى من قاعة السينما، وكلهن تقريباً مرضعات.. يبذلن قصارى جهدهن لدر الحليب في أفواه أطفالهن الرضع، حتى لا يرفعوا أصواتهم خلال إلقاء الشعر..

٧٥

إنها تجربة من أروع تجاربي الشعرية، أحسست بها أنني أُلقي الشعر في أحد مستشفيات الولادة.. وأن حليب الشعر قد اختلط بحليب الحياة.. في مزيج سماوي مقدس..

***

الراهبات.. والشعر..

زارني في مكتبي في بداية السبعينيات، ثلاثُ راهبات من إحدى مدارس الأشرقية في بيروت.

وأخبرتني رئيسة القسم الثقافي، أن تلميذات المدرسة يتابعن شعري في صف اللغة العربية، باهتمام كبير. ويأملن أن أقبل دعوتهن كي ألقي شعري على طالبات الصفوف العالية، بحيث يستمعن إلى الشاعر عن قرب، ويتحدثن إليه، ويطرحن عليه ما يدور ببالهن من أسئلة.

وتحمست حماساً كبيراً للدعوة، لأنها تدخلني إلى عالم من النقاء والطهارة كنت أظن أنه يرفضني، ويعترض على جرأة قصائدي.

وذهبت في الموعد المقرر إلى الأمسية، وقلبي يضرب في صدري كعصفور خائف، بعد أن قضيت أياماً أنخل فيها قصائدي بيتاً بيتاً.. وأراقب حروفي مراقبة صارمة، حتى أكون على مستوى المكان المقدس الذي دعاني، وحتى لا أجرح نقاء القوارير.

ومرت الأمسية على أحسن وجه، وشعرتُ أنني استطعت أن أشد (الفرامل) بقوة، وأن اختياري للقصائد كان اختياراً دبلوماسيّاً ومتوازناً..

وعندما انتهت الأمسية، ودخلتُ إلى غرفة المديرة لتناول الشاي، قالت لي مديرة القسم الثقافي على استحياء:

- لقد أسعدتنا يا أستاذ بقصائدك الرائعة، ولكننا كنا نتمنى

- تلميذاتي وأنا- أن تُسمعنا قصيدتك المؤثرة (حُبلى)..

٧٧

تصبب العرق البارد من جبيني، حين سمعتُ ما قالته الراهبة المحترمة، وسألتها وفي عيني تلتمعُ بروق الدهشة:

- حبلى.. حبلى.. حبلى!! هذه قصيدة قديمة جدّاً.. ولكن هل تعتقدين يا حضرة الراهبة أن هذا المكان يحتمل قراءة مثل هذه القصيدة الجريئة؟؟.

شعرت الراهبة باضطرابي، فأجابتني بكل هدوء وثقة:

- ولماذا لا.. يا حضرة الشاعر؟ إن قصيدتك (حبلى) هي واحدة من أكثر قصائدك أخلاقية، وسموّاً. وهي عبرة شعرية لكل فراشة مهددة بالسحق.. ولكل وردة مهددة بالاغتصاب..

وعلى فكرة، سوف يسعدك أن تعلم أن أكثر تلميذاتنا يحفظن قصيدتك عن ظهر قلب.. وكم كان يسعدهن لو استمعن إلى القصيدة بصوتك!!..

٧٨

وغادرت مدرسة الراهبات، وأنا مأخوذ بهذا التفسير العميق الذي قدمته الراهبة المسئولة عن القسم الثقافي لقصيدتي.

وفي السيارة التي أعادتني إلى منزلي، بدأتُ أدمدم بغبطة غامرة أبيات القصيدة التي كتبتها في الخمسينيات، وترجمت إلى اللغة الروسية، لأنها من أكثر قصائدي التزاماً بالإنسان، ودفاعاً عن المعذبات في الأرض..

٧٩

وهذا هو نص القصيدة التي ما زالت منذ أربعين سنة، تحرك مشاعر الناس، وتثير الأسئلة النقدية. أما النساء، فكن دائماً يجدن في القصيدة أفضل لائحة دفاع عن النساء المقهورات.. والمكسورات الجناح:

٨٠

حُبْلَى

(١)

لا تمتقعْ..
هي كلمة عَجْلَى..
إني لأشعر أنني حبلى..
وصرختَ كالملسوع بي: (كلا)..
سنمزق الطفلا..
وأردت تطرُدني..
وأخذت تشتمني..
لا شيء يدهشني..
فلقد عرفتك دائماً نذلاً..

(٢)

وبعثتَ بالخَدَّام يدفعُني..
في وحشة الدرب..
يا من زرعتَ العار في صُلْبي..

وكسرت لي قلبي..
ليقول لي: (مولاي ليس هنا).
مولاه ألف هُنا..
لكنه جَبُنَا..
لما تأكد أنني حبلى!!.

(٣)

ماذا؟ أتبْصُقُني؟
والقيء في حلقي يُدمّرُني..
وأصابع الغثيان تخنُقني..
ووريثك المشئوم في بدني..
والعار يسحقني..
وحقيقة سوداء تَمْلَؤُني..
هي أنني حبلى..

(٤)

لَيْراتُك الخمسون.. تُضْحِكُني..
لمن النقود؟.. لمن؟
لتُجْهضني؟
لتخيطَ لي كفني؟
هذا إذن ثمني؟
ثمن الوفا، يا بُؤْرَة العَفَنِ..
أنا لم أجئْكَ لمالِكَ النَّتِنِ..

(شكراً..)
سأسقط ذلك الحملا..
أنا لا أريد له أباً نذلاً!!.

***

الجزء الحادي عشر

٨١

سوف أخصص هذا الفصل من سيرتي الذاتية الجديدة، للحديث عن موضوع جديد وطريف لم أكتب عنه في سيرتي الذاتية الأولى، يتعلق بشعري المُغَنَّى، وعلاقتي بالغناء والمغنيين الذين غنوا قصائدي.

وبداية أقول إنني لم أحلم يوماً ولم أُخطط لكي أكون شاعراً غنائيّاً. ولكنني وجدت نفسي بالصدفة مزروعاً في قلب الأغنية العربية، وأصبحت بين ليلة وضحاها على شفاه كبار المغنيين والمغنيات.

٨٢

الشرارة الأولى انطلقت من بكين، عاصمة جمهورية الصين الشعبية، حيث كنتُ أعمل دبلوماسيّاً فيها ١٩٥٨-١٩٦٠.

لم أكن سعيداً في العمل في الصين، وكان كل ما حولي يحاصرني باللون الأصفر.. السماء صفراء، والحقول صفراء، والأشجار صفراء، والابتسامات صفراء.. واللغة صفراء.. والشاي أصفر.. والرز أصفر.. والعصيّ الخشبية التي كنت أتناول بها طعامي

صفراء..

ماذا أفعل لأكسر وحشية اللون الأصفر؟..

قلت أكتبُ قصيدة حب وردية.. عل اللون الوردي يغير حالتي النفسية، ويخرجني من معتقلي الزعفراني.. قبل أن يصبح دمي أصفر.. وثغرُ حبيبتي أصفر.. وثقافتي صفراء..

وبدأت أخربش على أوراقي كطفل محبوس خلف أسوار جدار الصين العظيم.. ومضطر أن يقرأ ليلاً ونهاراً.. شعر ماوتسي نونغ.. وبيانات الثورة الثقافية..

وبدأ المطر الوردي يتساقط:

أَيَظُنُّ أني لُعبة بيديه؟

أنا لا أُفكرُ بالرجوع إليه..

اليوم عاد.. كأن شيئاً لم يكن..

وبراءة الأطفال في عينيه..

حمل الزهور إلي.. كيف أردُّه؟

وصباي مرسوم على شفتيه..

وبدون أن أدري.. تركتُ له يدي..

لتنام كالعصفور بين يديه..

سامحتُهُ، وسألت عن أخباره..

وبكيتُ ساعات على كتفيه..

حتى فساتيني التي أهملتُها..

فرحت به، رقصت على قدميه..

ونسيت حقدي كله في لحظة..
من قال إني قد حقدتُ عليه؟
كم قلت إني غير عائدة له..
ورجعتُ.. ما أحلى الرجوع إليه!!..

عندما رأيت القصيدة ترتعش على الورقة أمامي كفراشة قزحية.. لم أصدق الورقة.. ولم أصدق أصابعي.. ولم أصدق أن الشعر ما زال على قيد الحياة..

خرجت كالمجنون ليلاً إلى شوارع بكين.. بحثاً عن صيني واحد أقرأ له قصيدة (أيظن).. ولكن كل الذين اقتربت منهم، وفي يدي القصيدة.. كانوا يهربون مني خوفاً من أن أكون عميلاً من عملاء الاستخبارات الأمريكية.. يوزع منشورات ضد النظام الشيوعي.

٨٣

رجعت إلى شقتي لأحتفل وحدي.. بميلادي.. وميلاد الشعر.. بعدما تأكدت أن شياطين الشعر لا يمكنها أن تصل إلى الصين.. لأن النظام الشيوعي لا يعترف إلا بشاعر واحد في العالم، هو الرفيق ماوتسي تونغ..

لقد بهرتني القصيدة، لا لقيمتها الشعرية، ولا لأهميتها الإبداعية، فهي قصيدة بمنتهى البساطة. ولكن حماسي لها كان يشبه حماس الأم التي وضعت طفلها، بعد أعوام من الانتظار والترقب.. لم يكن المهم ماذا ولدت.. ولكن المهم أنها ولدت..

كان حظُّ قصيدة (أيظن) من الذهب والماس.. حين أتيح لها أن تقع بين أنامل الموسيقار العظيم محمد عبد الوهاب.

ويبدو أن موسيقارنا قد قرأ القصيدة.. وأحبها.. وأحس بطرافتها كقصة حب قصيرة ترويها عاشقة.. فأخذ عوده.. وقال للسيدة المطربة نجاة الصغيرة التي حملت إليه القصيدة: هذه هي القصيدة التي تليق بصوتك.. وسوف أبدأ بتلحينها فوراً..

وفعلاً بدأ أستاذنا الكبير يلحن.. وبدأت السيدة نجاة تحفظ.. وبدأت البروفات تتواصل يوميّاً.. وبدأت الفرقة الماسية تتدرب على اللحن.. ولم تمر أشهر قليلة.. حتى كانت الأغنية تطل من الإذاعات والتلفزيونات والحفلات العامة، إطلالة الملكات..

وبعد أيام من إطلاقها.. كان الوطن العربي كله من الماء إلى الماء.. يستيقظ على (أيظن).. ويأكل.. ويشرب.. وينام على كلماتها.

كانت (أيظن) هي الخبر الرئيسي على صفحات الجرائد والمجلات العربية.. وكانت الإذاعات العربية مطرزة بأغنية (أيظن) من الصباح حتى المساء.. حتى نشر أحد رسامي الكاريكاتور المصريين رسماً لمذيع يقول أمام الميكروفون: (سيداتي سادتي: هنا إذاعة «أيظن»)!!..

بالإضافة إلى ذلك، دخلتْ بعض عبارات القصيدة القاموس السياسي.. مثل (اليوم عاد..) و(كأن شيئاً لم يكن..) و(ما أحلى الرجوع إليه..).

٨٥

ولعل من أخطر وأجمل وأنبل التأثيرات التي تركتها القصيدة في وجدان الجماهير، تأثيراتها الاجتماعية والخلقية.

فكم من زوجين مفترقين.. عادا إلى بيت الزوجية بعد أن سمعا عبارة (ما أحلى الرجوع إليه)..

وكم من حبيبين كانا غاضبين ومصممين على قطع علاقاتهما.. ندما على قرارهما.. بعد سماع عبارة (ونسيتُ حقدي كله في لحظة..).

إن رسائل الشكر التي تلقيتها من ألوف المعذبين بالعشق.. بعد انطلاق قصيدة (أيظن).. جددت إيماني بالشعر، كمبشر، ورسول، وسفير محبة.. مهمته أن يزرع أزهار الحب، ويفجِّر أمطار الحنان.. ويقرب الإنسان من أخيه الإنسان.

٨٦

إذن فقد أحدثت قصيدة (أيظن) زلزالاً فنيّاً لا سابقة له في تاريخ المنطقة العربية.. وأنا مستندٌ على جدار حائط الصين الكبير لا علم عندي ولا خبر..

وعندما عدتُ من منفاي الأصفر إلى القاهرة عام ١٩٦٠، لم أصدق أن قصيدة من القصائد المغناة، يمكنها أن تربح (الأوسكار).. كما لم أصدق أن شاعراً يمكن أن يتكنى باسم قصيدته.. حتى أن الصحف المصرية لم تذكر اسمي.. بل كانت تقول: ذهب شاعر (أيظن) إلى منطقة الأهرامات.. وشوهد شاعر

(أيظن) في مقهى الفيشاوي.. أو تناول شاعر (أيظن) الغداء على مائدة الموسيقار محمد عبد الوهاب.

ولما شكوت لصديقي الموسيقار هذا التجاهل والتجهيل في التعريف بي كشاعر، وأنني لست (شاعر أيظن).. وإنما أنا شاعر يمتد تاريخه الشعري إلى عام ١٩٤٢ وله عشرات الدواوين الشعرية التي سبقت (أيظن).

ضحك الموسيقار الكبير ملء شفتيه وقال:

(ما تزعلش يا نزار.. دي طريقتنا في التعبير عن إعجابنا بك.. فلقد كانت الصحافة تسمي أحمد رامي شاعر الشباب.. وتسمي خليل مطران شاعر القطرين.. وتسمي علي محمود طه الملاح التائه.. وتسمي بشارة الخوري الأخطل الصغير.. وتسمي بيرم التونسي شاعر الشعب..).

(ثم إن النجاح الأسطوري الذي حققته «أيظن» جعل الناس البسطاء في مصر يتساءلون: من هو هذا الشاعر الذي استطاع بقصيدة واحدة أن يحرك مشاعرهم ويفوز بحبهم؟؟..).

(ربما تعرف النخبة الشيء الكثير عنك وعن أعمالك الشعرية.. ولكن الفلاحين، والجنود، والصنايعية، وسائقي التاكسي، والشيالين، وعمال المصانع والنقل البحري.. يعرفونك عن طريق «أيظن»).

(فإذا كنت تطبع من كل ديوان شعر تكتبه ثلاثة آلاف نسخة، فقد طبعنا من أغنية (أيظن) مليون شريط.. ولسوف نستمر في الطبع).

٨٧

أصغيت بإعجاب إلى ما قاله الموسيقار الكبير عن فن الأقلية وفن الأكثرية، وعن ضرورة إيصال الشعر إلى من لا يستطيعون الوصول إليه عن طريق الأغنية الثقافية التقليدية.

وعندما انتهى حديث محمد عبد الوهاب المنطقي والشيق، شعرت أن الرجل كان يعبر عن فكري..

وسحبتُ شكواي..

* * *

الجزء الثاني عشر

٨٨

محمد عبد الوهاب ظاهرة ثقافية أكثر مما هو ظاهرة موسيقية أو صوتية.

إنه عقل يغني.

ولذا فإنه عاش نحو قرن من الزمان، معتمداً على طاقاته العقلية ومكتسباته الثقافية بالدرجة الأولى، وعلى طاقاته الصوتية بالدرجة الثانية.

الصوت الجميل هبة من عند الله، وهو مرتبط بعلم الجينات وقانون السلالات.. ولا يمكن للعندليب أن يُغير زقزقته.. وللحصان أن يغير صهيله.

ولكن الصوت الذي لا يثقف نفسه، ولا يتطور، ولا يجدد معارفه،

ولا ينفتح على ثقافات العالم.. يبقى صوتاً أميًّا..

والصوت الأمي يشتعل بسرعة.. وينطفئ بسرعة.. لأنه لا يملك الوقود الثقافي الذي يسمح له بالاستمرار..

وعالمنا العربي، يكتظ في هذه المرحلة الغنائية الهابطة، بعشرات الأصوات التي لا عقل لها.. ولا عمر لها.. ولا مستقبل لها..

٨٩

إنني لا أؤمن بصوت لا يشعُّ ذكاءً.

وصوت محمد عبد الوهاب على التليفون كان دائماً يشجيني.. ويسكرني.. ويدخلني في حالة (النرفانا)..

لذلك عندما سألني أحد الصحافيين اللبنانيين في أحد الحوارات: من هو محمد عبد الوهاب بكلمات؟

أجبتُه: هو عصفورٌ (يتكلم) جيداً..

ولم أقل: هو عصفور يغني جيداً..

لأن كل العصافير تجيد الغناء.. ولكن القليل منها من يجيد الكلام.

٩٠

تعرفتُ على الموسيقار محمد عبد الوهاب عام ١٩٤٥ في القاهرة، عن طريق صديقي الشاعر كامل الشناوي. وكنت حينئذ أخطو خطواتي الشعرية الأولى.

ورغم أن الفرصة كانت متاحة لي لقراءة شعري أمامه، عل الحظ يبتسم لي فيختار إحدى قصائدي للغناء.. إلا أنني لم أدخل المغامرة، لأنني كنت مدركاً أن الموسيقار الكبير لا يزال واقعاً تحت مغناطيسية

أمير الشعراء أحمد شوقي.. ولا يزال متأثراً بلغته وصياغاته الشعرية الفخمة..

كنت مدركاً أن الذي يلحن:
وتعطلت لغة الكلام.. وخاطبتْ
عينيَّ في لغة الهوى، عيناك..
لن يلحن:
على المقاعد بعضٌ من سجائره
وفي الزوايا بقايا من بقاياه..
هنا.. جريدته في الركن مهملة
هنا كتاب معاً كنا قرأناه..

٩١

لذلك كان لابد أن أنتظر محمد عبد الوهاب ثلاثين عاماً ليلحن لي عام ١٩٧٠ قصيدتي (ماذا أقول له؟) التي تغنيها السيدة نجاة. متحرراً بذلك من تركة أمير الشعراء، وبصماته التاريخية.

ومن أطرف ما رواه لي الموسيقار الكبير، أنه خلال تلحينه قصيدتي (ماذا أقول له؟) دخل عليه بعض أصدقائه من أصحاب الذوق التقليدي، وعندما سمعوه يغني جملة (على المقاعد بعض من سجائره..) قفزوا من مقاعدهم محتجين وقالوا له:

- إيه الانقلاب الخطير ده في اختياراتك.. يعني بعد قصيدة مجنون ليلى للمرحوم أمير الشعراء.. إنت عايز تغني عن السجاير.. والجرانيل؟.. لنزار قباني؟؟ حرام عليك يا أستاذ..

وضع الموسيقار الكبير العود إلى جانبه، وقال لهم بكل ثقة وهدوء:

- يا حضرات الأساتذة: أنا لحنت قصيدة نزار قباني لأنها تعبر عن الحب في العصر الحديث. وفي عصرنا لم يعد العشاق يمارسون الهوى تحت الخيام.. وإنما صاروا يجلسون في الكافيتاريا، ويدخنون السجائر.. ويطالعون الصحف.. ويتابعون أخبار العالم..

- وبكل صراحة أقول لكم إنني لحنتُ القصيدة لأنها تتحدث عن السجائر والجرائد.. لا عن (عيون المها بين الرصافة والجسر..).

- إن الأغنية يجب أن تكون صورة عن القرن العشرين.. لا صورة عن العصر الجاهلي..

٩٢

هذا الجواب الذكي والمثقف، الذي رد به محمد عبد الوهاب على احتجاج زائريه ونقدهم، يثبت كم كان الرجل حداثيًا ومتطوراً في فكره، وطليعًا في رؤياه.

لقد كان دائماً يسبق الأشياء.. ولا يمشي وراءها..

وأهم ما فيه أن حياته كانت مرسومة على المسطرة..

فلا مبالغة في شيء.. ولا استهتار في شيء.. ولا شراهة في شيء.. وإنما حياة تقترب كثيراً من حياة الرهبان والمتصوفين..

يأكل بهدوء وتقشف كما ينقر عصفور حبة قمح..

وينام وهو مستيقظ كما ينام الحمام الزاجل..

ويلبس ملابس الأمراء.. ويمشي مشية الأمراء..

ويخاف على جسده، كما يخاف امرأة على خاتم عرسها..
ولذلك استطاع أن يحمي فنه من التلوث..
ورغم ألوف المغريات التي كانت تحيط به، كفنان ملأ الدنيا وشغل الناس، ورغم نداءات الليل، والشراب، والنساء، والمخدرات، والتهتك، والانحلال، إلا أنه بقي محتفظاً بعذريته الجسدية والفنية والخلقية..

٩٣

وأود أن أعترف في هذه السيرة الذاتية الجديدة، أن الموسيقار محمد عبد الوهاب لم يكن مطرباً عربيّاً كبيراً فحسب، بل كان معلماً ونموذجاً وقدوة لي في عملي الشعري ونهجي الحياتي.
كان مدرسة تعلمتُ منها الانضباط، والنظام، والمسئولية نحو الفن. تعلمت منه كيف أحترم ورقة الكتابة، وكيف أحترم من أكتب لهم.. كما علمني أن المجد هو مسئولية والتزام اتسعت شهرتنا كلما اتسعت التزاماتُنا.
وفي مصيف بلدوان السوري، تصادف أن نزلنا في فندق واحد في السبعينيات، وفي غرفة الطعام كنت أجلس معه، وأطلب ذات الطعام الذي يطلبه.. واشرب من زجاجة ماء (إيفيان) التي يشرب منها.. وأرفض لمس الحلويات العربية.. واحتساء القهوة بعد الطعام..
حتى قال لي بعد يومين: (سيبك من الشقا ده يا نزار.. أنت لو استمريت شهرًا في هذا النضال.. حيصير شكلك زي المهاتما غاندي..).

٩٤

تعلمت من الكبير محمد عبد الوهاب أيضاً قلقه وخوفه من مواجهة الناس.

بعد سبعين عاماً من العطاء كان يرتعش كورقة في مهب الريح، ويتمتم من وراء الكواليس عشرات الآيات القرآنية قبل أن يقدم عملاً جديداً..

إنه خوف جميل، لا يزال يعصف بي أنا أيضاً قبل كل أمسية شعرية أقدمها.. كأنني طفل صغير يستعد لدخول الامتحان..

إن الفنان مهما ارتفع في سماء الشهرة، ومهما سُلطت عليه الأضواء.. يبقى خائفاً على مستواه، وعلى سمعته، وعلى تاريخه..

هذا الخوف هو خوف صحي.. وهو سمة مشتركة بين جميع المبدعين.

٩٥

أنتم بلا شك تعرفون محمد عبد الوهاب، مطرب الملوك والأمراء، وموسيقار العصر، ولكن لا أحد منكم يعرف محمد عبد الوهاب الكاتب والناقد الأدبي المتميز.

وقد فوجئت بالنص الرائع والكاشف واللماح الذي كتبه عني في إحدى الأوراق الخاصة التي تركها. والتي جمعها الصديق الشاعر فاروق جويدة في كتاب صدر عن دار أخبار اليوم تحت عنوان (عبد الوهاب وأوراقه الخاصة جداً)..

وفي هذا النص الجميل، يضعني الموسيقار محمد
عبد الوهاب تحت مجهر ذكائه وحساسيته، ويكشف أوراقي كما لم

يكشفها ناقد أكاديمي من قبل..

وعندما اطلعت على النص ذُهلت لكمية الصدق التي يحتويها، وعندما سألتُ زوجته السيدة نهلة القدسي: كيف استطاع زوجك أن يكتب عني بمثل هذه الشفافية؟ أجابتني: لأنه كان يكتب عن نفسه!!

٩٦

وأسمح لنفسي بأن أعيد نشر النص الاستثنائي الذي كتبه الموسيقار الخالد محمد عبد الوهاب عني قبل رحيله:

* * *

نزار قباني.. رسام بالكلمات(*)

الشاعر نزار قباني ينظم الشعر بعينيه لا بقلبه.

فهو مصور. أشعاره لوحات جميلة بأسلوب جذاب، بسيط، رشيق.

لم أشعر في شعره بانتفاضة قلبه، أو بمأساة عاشها، أو مشكلة مر بها واعتصرت قلبه، وصاغها شعراً. بل إنه مصور. وقد كشف هو عن نفسه. فقد أصدر ديواناً من الشعر عنوانه (الرسم بالكلمات). إنه عندما ينظم بلسان المرأة فإنه يرى مشاكلها، ويرقبها بدقة، ويصورها نظماً. لأنه يحس بإحساس المرأة بصدق.

وأنا لم أقرأ له شعراً حزيناً، أو به من الشجن ما يجعلني أحس بأنه التاع وسهر وبكى.. إنه رسام بالكلام.. كما قال هو.

إن نزار عندما يعاني مشكلة، ينفصل منه نزار آخر يرقبه في محنته، ويسجل عليه تصرفاته، ثم بعد ذلك ينضم إليه ليصبح نزار الشاعر يكتب ما رآه شعراً. إن نزار يخاطب المرأة والحب كأنه إمبراطور يأمر فيطاع، وأنه يتفضل على الحب والمرأة بما يجود به.

لم أشعر ولم أتصور أبداً أن نزار يركع على قدميْ محبوبته أو أن يتذلل لها. إنه أرفع من هذا. إنه ليس بإنسان يلتاع ويهيم.. إنه ملك.

والفرق بين نزار قباني والشعراء القدامى، أن شعر نزار ببساطة

(*) عبد الوهاب وأوراقه الخاصة جداً- الناشر: دار أخبار اليوم- القاهرة ص١٢٦- ١٢٧.

أسلوبه وألفاظه، أصبح شعراً جماهيرياً لا يحتاج إلى غنائه مثل الشعر القديم الذي كان لا يصل للجماهير إلا عن طريق الغناء.

ولا شك أن شعر نزار وصل للناس بدون غناء قبل أن يزيده الغناء جمالاً. أي أن نزار قرأ شعره من أجله.. لا من أجل أي مغنٍ يغنيه..

والشعر قبل نزار قباني كان لا يقرأه ويفهمه ويستمتع به إلا المثقفون. وجاء نزار ونظم شعراً يقرأه ويفهمه ويستمتع به المثقفون وغير المثقفين على السواء.

* * *

سيرة ذاتية

نزار قباني

- ولد في دمشق في ٢١ آذار (مارس) ١٩٢٣.
- درس في دمشق. وتخرج من كلية الحقوق بالجامعة السورية عام ١٩٤٤.
- التحق بعد تخرجه من الجامعة بوزارة الخارجية السورية، وشغل عدداً من المناصب الدبلوماسية في القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد، وبكين، وبيروت.
- استقال من العمل الدبلوماسي في ربيع عام ١٩٦٦، وأسس داراً للنشر في بيروت باسمه، متفرغاً بذلك لقدره الوحيد: الشعر.
- ركز في بداياته على شعر الحب. وحاول أن يخرج علاقات الحب في المجتمع العربي من مغائر القهر، والكبت، والباطنية، إلى ضوء الشمس، ومنحها العلنية والشرعية.
- كسر صورة المرأة الجارية، وحوَّل جسد المرأة العربية من وليمة بدائية، تُستعمل فيها الأنياب والأظافر، إلى معرض أزهار.
- اخترع لنفسه لغة خاصة به، من لغة الحوار اليومي، واتجه بشعره إلى جميع طبقات الشعب العربي، كاسراً بذلك جدار الخوف

بين الشعر وبين الناس، بحيث أصبح الشعر على يده خبزاً يوميّاً، وقماشاً شعبيّاً يرتديه ٢٠٠ مليون عربي.

- أكثر الشعراء العرب شعبية، وشهرة، وانتشاراً. وأكثر الشعراء العرب تأثيراً في وجدان مواطنيه، وأول من (أمم) الشعر، وجعله حديقة عامة يدخلها جميع المواطنين، ومطراً يسقط على جميع النوافذ.
- كتب الشعر وهو في السادسة عشرة (١٩٣٩)، وكان ديوانه الأول (قالت لي السمراء) الصادر عام ١٩٤٤، زلزالاً شعريّاً ضرب أساسات الشكل والمضمون في القصيدة العربية.

ومنذ هذا الديوان الانقلابي وهو يقاتل حتى يصبح البحر أكثر زرقة.. والأشجار أكثر ورقاً.. وقامة الإنسان أكثر ارتفاعاً.. والحرية أكثر حرية..

- اضطرته ظروف الحرب اللبنانية إلى مغادرة بيروت عام ١٩٨٢، حيث أقام بين سويسرا وبريطانيا. ثم أقام في لندن.
- أمسياته الشعرية التي يقدمها في كل المدائن العربية، تعتبر من الظواهر الثقافية النادرة، كما تعتبر تأكيداً لمواقع الشعر الخطير في حياة العرب، وفي تشكيل وجدان الإنسان العربي.
- انتقل شعره بعد هزيمة ١٩٦٧ نقله نوعية، من شعر الحب.. إلى

شعر السياسة، واستطاع منذ ذلك التاريخ أن يمسك الوردة والمسدس بيد واحدة.

- أصدر اثنين وأربعين مجموعة شعرية ونثرية بدءاً من مجموعته الشعرية الأولى (قالت لي السمراء ١٩٤٤) حتى مجموعته الشعرية والنثرية الأخيرة (إضاءات الصادرة عام ١٩٩٨).
- أهم قصائده التي أحدثت خضة في المجتمع العربي، وأثارت غضب المحافظين والماضويين هي (خبز، وحشيش، وقمر) التي كتبها في لندن عام ١٩٥٤، وناقشها البرلمان السوري حينئذ، حيث طالب النواب اليمينيون بمحاكمة الشاعر، وطرده من السلك الدبلوماسي.

والقصيدة الثانية المغضوب عليها، كانت (هوامش على دفتر النكسة) ١٩٦٧، التي كتبها في أعقاب حرب عام ١٩٦٧، ومارس فيها نقداً سياسيّاً جارحاً للتقصير العربي، مما أثار عليه غضب اليمين واليسار معاً.

- خطابه الشعري- سواء العاطفي منه أو السياسي- يتميز بالصدق، والعنف، والتوتر العالي. وأهم ما فيه كشاعر أنه لا يقسم الكلمة إلى نصفين.. ولا الحقيقة إلى نصفين.
- شاعر تصادمي وغاضب، كنَّس ألوف الخرافات التي تستوطن

رأس الإنسان العربي، وقاتل كل ملوك الغبار، وكل رموز القمع، ولم يتزوج من كل نساء العالم، سوى امرأة واحدة، هي الحرية.

* * *

